الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلـف هـذا الكتـاب

١- مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة
عند ابتداء إمارة عبد الله

٣٤- رفض مطالب ألفونش السادس واشتراكه مع ابن عمار:

[... وأَمَّــا] أَلْفُونْشُ، لمّــا تيقَّن هذه الفِتَن، عَلِمَ أنَّ ذلك من أكْبَر سعــادته وأعْظَم فُرَصِه فى طَلَب الأمــوال، فأرْسَلَ إلينا رســولَه: أوّلَ مُداخلَةٍ نشأتْ بَيْنَنا وبَيْنَهُ، فأتى باطرُ شُولِش يطلُب منَّا ضَريبــتهُ، فأبَيْنا عليه، واجتمع رأيُنا على أن لا نفــعل، وأنَّ ضَرَرَ أَلْفُــونْشُ لا يُخشى وغَــيْرُنا أَمَــامَنا، نعنى بذلك ابن ذى النُّون، ولم نَقِسْ أنَّ أَحَــدًا يُعاقِــدُهُ على مُسْلِمٍ، فانــصرف عنَّا دون عَمَلٍ.

وإنَّ ابنَ عَمَّار انتهز هذه الفُرْصة، وكان مُنْتَظِرًا له بِبَاغُه، مُرْتَقِبًا لِمَا يصنع معنا، فلمّا رأى أنه لم يتمَّ له عَمَلٌ، ألْقَى يَدَه فيه على المقام، وقال له: «إن كنتم مُنِعْتُــمْ عشرين ألف دينار (وهى التى ســأل عن ضرِيبتِــه) فنَحْنُ نعطيكم خمسين ألفًا، على أن نُعاقِدكم على غَــرْناطة: تعطونا القاعِدة، ولكم ما فيها من الأموال!» فــعاقَــدُوه على ذلك، واتَّفق رأيُهم على أن يبنوا على غــرناطة مَعْقِلاً يضيِّق عليها حتى تلقى يدها، وكان ابــن أَضْــحَى، المــذكورُ قــبل هذا ـ هو المُــخْرَجُ على يدى النابة ـ قــد انحــاش إليهم، يدُلُّ بهم على عَــوْرات البلدة، ويُريهم أشدَّ مــا يكون عليهــا من المَوَاضع إن بُنِيَ، ويجعل فــيه ندبًا للضرب والتضييق، فأراهم حِصْنَ بَليلُّش.

وأكْرَى ابنُ عــمّار من عسكر أَلْفُــونْش ما قوى به على البُنيــان بأعداد من

الأموال جسيمة، يسوِّفهم فـيها تارات، ويَعِدُهم ويُخادِعهم، حتى تمَّ البُنيان، وجعل المُعـتَمِد يُحاوِل ذلك بنفـسه، ويبرز أبَدًا على مقربـة من غرناطة مدَّة كَوْنـه، طمعًا فـى أن يقومَ مـعه أهلُ البلدة، فلمّـا تمَّ بُنيانُه، قـوَّاه بالندب، واتَّخذ فيه جميع الأقوات، وأمَـرَهم بالتضييق، وكانت الحالُ شديدةً، ونُسِيَ به أمرُ القَلْعة.

وعند انصراف المُعْتَـمِد عنه وعساكِر الرُّوم، عَبَّينا عسكرًا كـثيرًا، ونَهَضْنا إليه، فلـم نقدر فيـه على شيء، وانقطع رجاءُ الـناس من دولتنا، لاجتـماع المُطالِبين عليها مع الرومى، ونَدِمْنا على التفـريط أوَّلاً فى مُعاقَدته حَسَب ما سأل، وكان من أحسن شيءٍ على السلاطين أخْـذُ مَعْقِلٍ بالسيف، فإنَّه، متى اعترض، لم يستطِعْ على دخوله لمنعته وما عُدَّ فيه، ولا على إحصاره، حتى ينفـد ما فيـه لقوَّةِ تأتِيـهِ، فيُـقْلِع عنه إلاَّ من كان أقْـوَى، ولم نكُنْ نَحنُ إلا مُتكافِـئين فى ذلك: متى ما أعْطَى أحَـدُنا لعسكرٍ مالاً، وأراد الآخَرُ نَـقْضَه، أرْبَى عليه وأراحَهُ منه.

فكانت بَلِيلُّش قد أفسدت، وضيَّـقت على فَحْص غرناطة، ولم يكْفِ ما حلَّ من أجَلِها حتى جعَلَنا الفُونْشُ أن نُغرِمَ مـا فَاتَهُ منَّا، تباعةً وتذنيبًا لرَفْضِنا إيَّاهُ، واستـدفاعًا لِمَـا يُتَّقَى من تَمـادِيهِ على الطَلَب، وابنُ ذى النون فى هذا يتوسَّط له بالأمر، ويسـعى فى تصيير المال إليه، يرضيـه بذلك وينتظِرُ فسادَ مَمْلَكتنا، فيَـفْتَرِصُها هو أو يأخُـذَ منها حِصتَّه، فكان ـ على مـا قدَّمْنا ذِكْره ـ عدوًا فى البـاطِن، صديقًا فى الظاهر، وهو مع ذلك لا يزال يُدَاخِلُ قُـرْطُبة، ويَسْعَى جَـهْدَه فيهـا، إلى أن قدَّر الله، وافتَـرَصها غُـدْرًا بمُداخَلة من بعض

أهلها ممَّن لا خَطَرَ له، واستُشْهِـدَ فيها ابنُه عَبَّاد [بن المُعْـتَمِد] وقـائدُه ابنُ مَرْتِين.

فلمّا انقـضت بقُرْطُبـة هذه الدائرة، وسمع بالخَبَـر أهلُ بَلِيلُّش، أخْلَوْها على المقـام، ودَخَلَها رِجالُنا، وصارت فى مِلْكنا مُـشيَّدةً مَبْنِيَّـةً، فَنظَرْنا منها بالذى نصنع بقَصَبَة غرناطة، وتروَّح مُخَنَّقُها من حيث لم يُحْتَسَبْ.

٣٥- المهادنة بين عبد الله وابن صمادح صاحب ألمرية:

وكان قائدَ مدينة بَسْطَة ابنُ مَلْحَان، رَجُلٌ مـعجبٌ، قد شَرِهَتْ نفسُه إلى رُتَب الملوك، وكان المُظَفَّر ـ رحمه الله ـ قد فوَّض إليه أمْرَ البلدة عِوَضًا من أبيه، فلما صـارت لنا الدولة، وكثر فيهـا آراءُ الوُزَرَاء، جعل كلٌّ واحد منهم يطلبه بمال، ويسألُه مُتاحَـفات: فمن لم يعطِه، طالَبَهُ وأذَاهُ، مع صغر سنِّنا، فلم يَجِدْ سـبيلاً إلى الدفاع عن نفـسه، ولا شكوى لمن يذبُّ عنه ويحمـيه، فترامَى على ابن صُمَادِح وقـبله، وصارت البلدةُ إليه، عَلِمَ أنَّه لا يُفاتَن طولَ مدَّة الفِتْنة مع ابن عَبَّـاد، ثم إِنَّه غدر حِـصْنَ شِيلَش، ونحن، فى ذلك كلِّه، لا نفتـر عن مُخازاته بـالإضرار ببلده، وصار إلينا مع حِـصْن شَنْت أَقْلَج من مَعاقِلِه ما وَقَعَت المُعاوَضةُ به من شِيلَش، وصالَحْناهُ مُهادَنَةً وانجرارًا للحال، حتى نَرَى ما نصنع مع ابن عَبَّاد.

٣٦- مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة
واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه:

وبقى ابنُ عمَّار مُرْتَهِنًا بما جـعل على نفسه للنَّصْرانىِّ من كراءِ بَلِيلُّش فى تبعـات كثيرة وجـرايات جسيمـة يُقْطِعُها له، ويَعِـدُهُ بها، وأدْخَلَ سلطانَه من

ذلك فى تشغيب، لأنَّه كان لا يُريد أن يجعله يَخْلُد إلى راحةٍ لِكَىْ يحتاج إليه فى تلك الفِتْنة لا يقرُّ عن إِدخال ضَرَرٍ على المسلمين، ومتى ما كان الْمعتَمدُ يسعى فى تهدين الأمر، ونرومُ معه الصُّلْحَ، او تنشأ مُهادَنَةٌ، لا يَنامُ فى نَقْضِها وإشعالِ نار الفتنة.

فعاد ثانيةً إلى النصرانىِّ الْفُونْشُ، وزيَّن له أمْرَ غرناطة، وصَوَّرَنا عنده فى صورةِ مَنْ لا يقدر على شيء من أجْل الضعف وسنِّ الصبا، وأنَّه ضامِنٌ له أموال غرناطة لتَصير إليه بأسْرها، على أن يُعاقِدَهُ، إِذ تمكن من البلدة، أن يجعلها مُلْكَهُ، وله ما لَقِيَ اموالنا، والْقِيَ يَدَه فى الْفُونْشُ، عازمًا عليه فى الإقبال إليها، واعطى على ذلك اموالاً جسيمة، ووعده بخمسين الف مِثْقال إذا تمَّت القضيَّة، سيعطيها زائدةً على ما يَجِدُ، لمُساعَدَته على السير.

فأدْرَكَ الرُّومىَّ من ذلك طمعٌ كبيرٌ، وقال: «هذه نَصْبَةٌ لَسْتُ اخْلُو فيها من فائدةٍ، وإن لم تُحَصِّل البلدة! وأىُّ فَائدَةَ لى فى إعطاءِ بلدة من واحِدٍ لآخَرَ إلا تَقْوِيَتُه على نفسى؟ وكُلَّما اكثر الثوَّارُ، ووقع بينهم التنافُسُ كان لى افْئدًا» فأتَى على نِيَّةِ اخْذِ مالِ الفريقَيْن، يكسرُ رءُوسَ بَعْضِهم ببعض، ولا كان ايضًا فى امَله أن ياخذ البلاد لنفسه، فإنَّه عمل فى ذلك حسابًا أن قال: «إنا من غير المِلَّة، وكلُّ الناس يشْنَأنى، فَبِأَى وَجْهٍ اطمع فى اخْذِها؟ إن كان من باب الطاعة، فأمْرٌ لا يمكن، وإن كان من وَجْه القتال، فيهلك فيها رجالى وتذهب اموالى، وتكون الخسارة على اكثر ممَّا نرجوه إن صارَتْ إلىَّ، ولو صارَتْ، لم تَتَمَسَّكْ إلاَّ بأهلها، ثُمَّ لا يؤمنون! ولا من المُمْكِن أن نَسْتَبِيحَ اهْلَها ونُعَمِّرَها بأهْل مِلَّتى! ولكنَّ الرأىَ، كلَّ الرأىَ، تَهْدِيدُ بَعْضِهِم

ببَعْضٍ، وأخْذُ أمـوالهم أبَدًا، حتى ترقَّ وتـضعف، ثمَّ هى تلقَى بيـدها إذا ضعُـفت، وتأتى عفْـوًا، كالذى جَـرَى بُطلَيْطُلَةَ[١] إنَّمـا كان من فَـقْرِ أهْلِهـا وتَشَتُّتِهم، مع اندبار سلطانها، وصارَتْ إلىَّ بلا مَشَقَّة!».

وكُنَّا نحن نعلم هذا من مَذْهَبه، على ما كـان يُخْبِر به وزرَاؤُه، ولقد قال ذلك شِشْـلاَنْدُ فى حال هـذه السفرة، وشـافَهنا بـذلك، وقال: «إنَّمـا كانت الأَنْدَلُسُ للرُّوم فى أوَّل الأمـر، حـتى غلبـهم العَرَب، وألْحَـقُـوهم بأنْحَسِ البِقاع: جِلِّيقِيَّةَ[٢]، فهُمُ الآن عند التَمكُّن، طامعين بأخْذِ ظلاماتهم! فلا يصحُّ ذلك إلا بضعف الحال والمطاولَة، حـتى إذا لم يَبْقَ مالٌ ولا رجالٌ، أخَذْناها بلا تَكَلُّف!».

فكان الجميعُ يُسـايرُ الأمورَ، ويُدافِع الأيَّامَ، ويقول: «مِنْ هُنا إلى أن تتمَّ الأموالُ وتهلكَ الرعايا بزَعْمِهم، يأتى الله بالفَرَج وينصر المسلمين!».

فورد علينا من إقـبال ألْفُونْشُ مع ابن عـمَّار هَوْلٌ عظيمٌ، وصحَّ عندنا أنه لم يَأتِ إلاَّ طالبًا لمُلْـكنا: قد استَوْثـق من ألْفُونْشُ على ما قـدَّمْنا ذِكْرَه، ثمَّ أرسل إلينا ينذرُ بإقـباله، ويأمُرُنا بـالخروج إليه، يُرَى أنَّه يذهـب إلى تجديد العَـهْد والاجـتـماعِ بنا، على مـا يفـعله مع السـلاطين، فلم نشكَّ أنَّ ذلك للتقبُّض علينا وإنجـاز ما عاقَدَ عليهم، فاجتـمع علينا أهلُ الرأى والمشورة، وقالوا: «ما الذى تذهب إليه؟ هذا عَـدُوٌّ قد جاءَ لطَلَبك، ولا قدرة بك على

---

(١) طليطلة: بالأندلس وهى مركز لجميع الأندلس، وكانت دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق، وهى حصينة لها أسوار حسنة وقصبة حصينة (الروض المعطار).

(٢) جليقية: ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالى الأندلس فى أقصاه من جهة الغرب، وهى بلد لا يطيب سكناها لغير أهلها (ياقوت).

مناواته! وسَواءٌ عليك خَرَجْتَ أم بَقِيتَ! فإنْ أنت بَقِيتَ، حلّتْ بك الداهيةُ العُظْمَى، ووقعت المُفاسَدة، وأصاب مُطالبُك سبيلاً إلى العَمَل، وتكون هذه أشَدّ من الأُولى، وَقت رَفَضْنا بَطْرُه شُولِش وألقى ابنُ عـمَّار يَدَه فيه حتى بَنَى علينا بَلِيلُش، والآن لم يتروح مُخَنَّقُنا حتى نعود إلى ما هو أدْهَى وأمَرُّ، فلو رأت الرعايا بعض خِلاف من هذا الجيش، لم تُبق ولا تَذَرْ لشعفة ما قد دَهَوْا به قَبْل، وكان الرجاءُ ينقطع، ويتلف الكلُّ حتى تُؤخَذَ هُنا باليدِ على غَيْرِ صُلْحٍ، فلا يرقب فينا إلا ولا ذِمّةً! فالخروجُ إليه أيْسَرُ لأمْرَيْن: فإن كانت سلامة، شكرتَ رأيكَ، وثبت مُلْكُك، وإن كانت الأُخْرى، كان خروجُك عن أمَان، وصِرْتَ حَيِّزًا فى العافية! فاعْزَم على لقائِه، وقُلْ له قولاً ليِّنًا، ولله أن يُنَفِّذَ قضاءَه.

فاستَعْدَدْنا لذلك جهدَنا وأجْمَعْنا حَوالَيْنا مَنْ نَثِقُ به من رجالنا، وأخَذْنا أُهْبة الحال، ولقيناه على مقربة من المدينة، وبالَغْنا بالضرورة فى إكرامه، فأعرض علينا وَجْهًا بَسِيطًا وخُلُقًا حَسَنًا، ووَعَدَنا أنّه يُحامِى عنّا كما يُحامِى عن بَلَده.

ثمَّ وقعت المُعاملة، ومَشَت الرُّسُل منّا إليه ومِنْه إلينا، يُبيِّنُ ما عُوقِدَ عليه وأنّه سِيقَ سُوقًا، ويقول: «إنّى قد تَشَبّثُ فى الأمر، ولم نُعَجِّل حتى نسمع ما عندكم، فإن جامَلْتُمونى ورأيتُم لقَصْدى وَجهًا، وانصرفتُ عنكم على خير، وإلاَّ، فها أنا مع من عاقَدَنى!» وطلب خمسين ألف مِثْقال، فشكَوْنا إليه قلّةَ البلاد، وأنّ ذلك لا يقدرُ عليه، وفيه من القطع لنا ما يَفْتَرِضُنا به ابن عبَّاد، فإنه لو أخَذَ غرناطة، قوى عُنْصُرُه «ولم يَنْطَعْ إليك، فَخُذْ ما نقدر إليه،

وَاتْرُكْ رَمَقًا لا نَسْتَأصِلَ من أجْله! وَما تركتَ، تَجِده عندنا متى ما طلبت!»
فقبل العُذْرَ بعد جُهْدٍ عظيمٍ، وقاطَعْناه لقصْده بخمسة وعشرين ألفًا، نِصفَ العدَد، ثمَّ أعدَدنا له من الفرش والثياب والآنية كثيراً، استدفاعًا لشرِّه، وَجَمَعْنا ذلك كله فى خِبَاء كبير، ودعَوْناه إليه، ولمَّا رأى الثياب استَحْقَرَها، ووقع الاتِّفاقُ معه على زيادة خمسة آلاف مِثْقال لِتَتمَّ بها ثلاثون ألفًا، فأكملناها له لئَلاَّ ينفسد الأكثرُ عن الأقلِّ، فشكر على ذلك كُلِّه، وطابت عليه نفسُه ورجع إلى ابن عَمَّار يقول له: «كَذَبتَ لى فى قولك: إن غرناطة فى ضَعْفٍ، وَإنّ صاحِبها من صغر سنِّه لا يعقل! ورأيتُ من رتبتها وأحوالها ما خَالَفَ قولَكَ!».

فرجع ابن عمَّار يسأله أن يعقد بَيْننا عَقْداً يُوقَف عنده، وَاستماله على أخذ إسْطَبَّة من عندنا، وكانت مَعْقِلاً عظيمًا ممّا يَلِى جِهات إشبيلية[1]، قد كان أَخَذَه قائدُنا كَبَّابٌ فى الفِتْنة، وَسَألناه نَحْنُ خبَرَ القَلْعة، فوقع الاتِّفاق على أن تكون قَلْعَةُ أسْطَلير عِوَضًا من إسْطَبَّة[2].

وكانت قَاشْتُرهْ ومَارتُش المَعْقِلَيْن اللذَيْن على جيَّان، ومن أجْلهما انقطع صاحِبُهما عَنَّا [ماكْسَن] ولم يكن لجيَّان مَعْنًى إلاَّ بهما، فترامى ابنُ عمّار فى أمرهما على ألفُونْش، ووَعَدَهُ على مَارتُش بأموال كأنّه يشتريها منه، فَعزَمَ علينا فيها للطمع فى المال، ووَعدَنا نَحْنُ على قاشْتُرهْ بالمَطْمَر، وكان أيضًا

(١) إشبيلية: مدينة بالأندلس جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام، وهى مدينة قديمة أزلية (الروض المعطار).

(٢) مدينة بالأندلس على خمسة وعشرين ميلا من قَلْشانة، ومن قلشانة، وهى قاعدة شذونة، إلى قرطبة أربعة أيام (صفة جزيرة الأندلس).

حِصنًا قد اشترك نَظَرُهُ مع نَظَرِنا بِيَدِ ابن ذى النُّون، فضمَّن خَبَرَه أنَّه يعطيه لنا عِوَضًا منها، فدافَعَنا الأمْر جُهْدَنا: فلم نقدر على أكثر فَعْلِ القوىِّ مع الضعيف.

ثمَّ إنَّه عَقِدَ العَقْدُ بَيْن يَدَيْه على ذلك، وأن لا يتعدَّى مِنَّا أحَدٌ على صاحِبِه، وذكر فيه ما نعطى كلَّ عام من الضريبة: فجعل علينا عشرة آلاف مِثْقال فى العام، وطيَّب لنا الكلام بأن قال: «طمع ابن عمّار أن نغدر بك، ومَعاذ الله من ذلك أن يشيع فى الدنيا أنَّ مِثْلى كبيراً فى الرُّوم يقصدك، وأنت كبير فى جنسك، ثم نغدر بك! فابْقَ على أمان! لا أُكَلِّفُكَ إلا الضريبة، تُوَجِّه إلىَّ بها فى كلِّ عام دون مَطَلٍ، وإن تأخَّرْتَ بها، أتاك رسولى عنها وتلزمك عليه نفقات، فبَادِرْ بها!» فَقبِلْنا قوله، ورأينا إعطاء عشرة آلاف فى العام ندفع بها مَضرته خَيْراً من هلاك المسلمين وفساد البلاد، إذ لم تكن بنا قدرة على مُلاقاته ومُكابَرته، ولا وَجَدْنا من سلاطين الأنْدَلُس عَوْنًا عليه إلا من يسوقُه إلينا لِهلاكنا، فبَقِيَت الأُمور على مُصالَحة ومُهادنة ورفاهية، لا يُسمع فيها بفِتْنةٍ.

٢٧- استيلاء ألفونش السادس على طليطلة:

وممَّا هيَّأهُ الله أن فَقَدْنا وسائط السَّوءِ بعد ذلك بفَقْد ابن عمار، وَشغْلِه فى مُرْسِيَة[1]، وبزوال سِماجَة عنَّا وأشياعِه، وتوفِّى قبل ذلك ابنُ ذى النون عند بلوغه آماله بقُرطبَة، وكانت الأنْدلس قد ارتَجَّتْ له، وخافه الرؤساءُ،

(١) مرسية: بالأندلس، وهى قاعدة تدمير، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، واتخذت دار العمال وقرار القواد (الروض المعطار).

فلم يلبث بها يسيراً حتى مات: وكذلك الأشياءُ إذا تمَّتْ، وكان أهْلُ العِلْم يخبرون بذلك أنّه إذا حصل على قُرْطُبَة، فقد تمتْ أيامُه وإذا تمَّ شيءٌ، دنا نَقْصُه.

ثمَّ خُلِع من بعده حفيدُهُ، وقام عليه أهْلُ بلده، ولجأ إلى الفُونْش، فصرفه إليها على قَهْرٍ وغلبةٍ، إلى أن جعل عليه أموالاً جسيمةً، أشَدُّها ما جعل على نفسه فى شراء حِصْن من الفُونْش على مقربة من طُلَيْطُلَة بمائة وخمسين ألف مِثْقال طيِّبة وخمسمائة مُدْيٍ من طعامٍ ضيافةً لكلِّ ليلةٍ مدَّة مقامه عليه: أخَذَها من أهل بلده حتى ضعفوا، ولازمَها الفُونْش حتى صارت إليه، وَعوَّض صاحِبَها ببَلَنْسِيَة[1]، ولَم يَعْتَرِضْ له مالاً ولا أهْلاً غير الذَّهَب والفضّة.

وكان حفيدُ ابن ذى النون، فى أقَلِّ ولايته، لم يقدِّم شيئًا على الغدر بوزير جَدِّه [ابن] الحَديدى لسعاية البُغاة أعدائه، وسولَّت له نفْسُه أنّ قَتْلَه لا يصحُّ إلا على يدى قوم قد سجنهم جَدُّه على بصيرةٍ، فأطلقهم وسلَّطهم عليه، ولمَّا تمكَّنوا منه، كان كَلَبُهم عليه أشدَّ، وصاروا طالبين للثأر وكانوا أقْوَى الأسباب فى فساد مُلْكه، وهُمْ بنو اللّوَارَنكيّ، وبنو مُغِيث، ومن انحاش إليهم، وكان قديراً على قتله دونهم، لكنَّ العَجْزَ وضُعْف الرأى عَمَّيا عليه وجه الصواب.

(١) بلنسية: فى شرق الأندلس، بينها وبين قرطبة على طريق بجّانة ستة عشر يومًا، وعلى الجادة ثلاثة عشر يومًا، وهى مدينة سهلية، وقاعدة من قواعد الأندلس، عامرة القطر، كثيرة التجارات، وبها أسواق وحَطٌّ وإقلاع، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال، وهى على نهر جار ينتفع به، والسفن تدخل نهرها، وسورها مبنى بالحجر والطوابى (صفة جزيرة الأندلس).

٣٨- استيلاء ابن هود على دانية[١] بعض أخبار بني هود:

وحصل أيضًا ابن هود على مدينة دَانِيَة بغفلة صاحِبها عن الرجال وحبِّه فى الأموال، مع مُداخَلات أُوتى بها من قِبَل وزيرهِ ابنِ الرِّيُولُه، الخارج عنه إلى سَرَقُسْطَة[٢]، فعمل عليه مع ابن هود حتى أتاه على غفلة، ودخل المدينة بلا مشقَّة، وحصل منها على عظائم من الأموال بوفرها، وكان عنده وَلَدُ مُجاهِد صاحِبِ دَانِيَة مكرَّمًا حتى مات.

وَإِنَّ ابنَ هود، لمَّا حصل على دانِيَة، انفسد طبعُه، وأدركَتْه الرَّغبة فى البلاد، وزال عما كان عليه من جهاد الرُّوم، وطَمِع فى بَلَنْسِيَة عند ذلك، وأعطى عليها أموالاً جسيمة لألْفُونْش، والْفُونْشُ فى هذا كلِّه، على ما قدَّمنا ذكره، يأخذ الأموال، ولا يحقِّق لأحد أن يُهاوِدَه على أخْذِ بلدة، فتوفِّى ابن هود فى إثر أخْذِه لدَانِيَة وبلوغِهِ آماله منها، وقد كان ابن الخَيَّاط المُنَجِّم ذكر ذلك كلَّه، ولقد قرأتُهُ فى بعض كتُبه قَبْلَ أن ينقضى، حتى رأيتُه عيانًا.

وكانت قضيَّتُه فى دَانِيَة كقضيَّة ابن ذى النون بقُرْطُبَة: فإنَّ ابن هُود اهتزَّت له الأنْدَلُس عند حصوله على دانِيَة، وجزع جميعُ الرؤَساء لأخذِه لها

(١) دانية: مدينة بشرق الأندلس على البحر عامرة حسنة لها مربض عامر وعليها سور حصين، وسورها من ناحية المشرق فى داخل البحر قد بنى بهندسة وحكمة، ولها قصبة منيعة جدًا، والسفن واردة عليها صادرة عنها، ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو، وبها ينشأ أكثره لأنها دار إنشائه (الروض المعطار).

(٢) سرقسطة: فى شرق الأندلس وهى المدينة البيضاء، وهى قاعدة من قواعد الأندلس، كبيرة القطر آهلة ممتدة الأطناب واسعة الشوارع، حسنة الديار والمساكن متصلة الجنات والبساتين، ولها سور حجارة حصين، وهى على ضفة نهر كبير (الروض المعطار).

دون قتال ولا زمان، وأَعَدَّ كلٌّ أحدٍ عُدَدَهُ مُتَأَهِّبًا لشرِّه، إلى أن أراح الله منه، وقبضه على فِتْنةٍ واقتبال أمَلٍ.

ثمَّ قام من بعده ابنُه المؤتَمِنُ، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى مات، وشعر المؤتَمِنُ لابن الرُّيُولُه وزيرِ أبيه بأعمال فاسدة مع أَلْفُونْش، ليتخدَّم له خدمة ابن عمَّار فيرأس لذلك عنده على أهل زمانه خِذْلانًا وطغيانًا، فأمر بقتله.

وتوفى المؤتَمِنُ، وورثه المُسْتَعِينُ حَفِيدهُ هذا الوالى الآن.

وكان المؤتَمِنُ رجلاً عالِمًا، قد طالَع الكُتُب، مع ما كان عنده من الآثار، فرأى مَوْتَه قريبًا، فكان لا يسرُّ بالمملكة، ويزهد فى كثير من الدنيا، ولقد أخبرنى بعضُ من حضر مَجْلِسَه من أعلام جُنْده أنَّه كان يُريهم ذخائره التى لم يجتمعْ مثلها عند مَلِكٍ، فيُهنئونه عليها، فيقول لهم: «ما أصْنَعُ بها، والمُدَّةُ يسيرةٌ، ولا أدْخُلُ منها قبرى إلا بكفنٍ!» فكان يكدر قولُه ذلك عليهم، حتى مات.

وكان مُنْذِرٌ أخوه بدانِيَة، إلاَّ أنَّ أباهُ الشيخَ لم يُمكِّنْهُ من مالٍ، حذرًا منه أن يخالف على أخيه لحدَّته وشدَّة بأسه، فلما توفِّى المُقْتَدِرُ، اضطربت الفِتْنَة بينهما، وكان مُنْذِرٌ منهما يتَضَعْضَعُ له وَيتكافى به، لِمَا كان من إحسانه للأجناد ومواساته لهم، إلى أن توفِّى بعد أخيه، وقام ابنٌ له صغيرٌ بعده، يُدبِّرُ مُلْكَهُ وزيرهُ.

٣٩- ثورة ابن عمار على المعتمد بمرسية إلى أن أخرجه منها ابن رشيق أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع

وصار ابن عمَّار فى حَيِّز الخِلاف على المُعتَمِد، وجَعلَهُ يطْلُب مُرْسِيَةَ، واعتراهُ عليها مشقَّات ونَفقات أموال، وجرَى من أسْرِ ابن المُعْتَمِدَ عليها ما قد شهر، وطال مكثُه على مُرْسِيَة، يُحزِّب عليها الأحزاب وينفق الأموال، يُرى سلطانَه أنَّ السَّعْىَ له، وهو فى الباطن يجدُّ لنفسه، لكَىْ يتَّخذَها مَعْقِلاً يَرأسُ فيه، كالذى صنَعَ، ولقد كان يقول أهلُ العلم بالآثار والتأثير: «إنَّ مُلْكَ بنى عبَّاد يتناهى حتى يبلغوا إلى تُدْمير[1]»، ومن ثَمَّ يتمُّ هلاكُهم، وكان الناسُ إذ ذاك يتوقَّعُون عليه الفساد عند محاولَة ابن عمَّار لأمْرها، فلم يكن إلاَّ بَعْدَه بحينٍ، عند بلوغ الكتاب أجَلَهُ.

وصار ابن عمَّار بمُرْسِيَة بأقبح طريقة من الاستخفاف بالناس، واستعمال المعاصى، والإدمان على الخَمْر، حتَّى أبْغضه أهلُها، وكان للمُعْتَمِد طاعةٌ فى معصية، واشتهر بأخْذِ عِرْضِه وهَجْوِه بما قد نَزَّهَهُ الله عنه، فِعْلَ الأوغاد والأرذال.

وقدم إلى مُرْسِيَة ابنُ رَشِيق، فكان يطويها وينشرها، وشَبَّكَ عليه المعاقِل بقرابته، واتَّخذ لنفسه صنائع مُدَّة غفلة ابن عمَّار عنه وإقباله على راحته، إلى أن خرج عن مرسِيَةَ، يُريد لنفسه فى رسالة النصرانىِّ ليخدم أمْرَ الأقطار[2]

(١) تدمير: من كور الأندلس، سميت باسم ملكها تدمير (الروض المعطار).

(٢) فى المطبوع: «الانظار».

التى تُجاوِره فى الشرق، وعسى يَضعَها فى يدَيْه، مِثْل شَنْتمريـَّـة(١)، ويسْعَى فى إِصلاح مـا أفسد عليه ابنُ رَشِـيق، فإنه لم يَجدْ إليـه سبيلاً لكَلَبِـه عليه، ولما نـهض إلى ألفُونْش، فـأوَّلُ ما سعَى فى تَصْـيِـير طُلَيْطُلَة إليه بمُـدَاخَلة أَهلها، ليكونوا حاكمين أنفُـسَهم، ويُؤدُّوا الجِزْية للنصرانى دونَ رئيس، وأتى طُلَيْطُلَة، وابـنُ ذى النُّون فـيهـا باسْـمِ الرسالَـة، ووافقَ على ذلك، ومَـحلَّة ألفُونْش عليـها، فى حين صَرْفِ حـاجِبِها إليـها بعد خَلْع أَهلهـا له، لِيَفِىَ له بوَعْده، ثُمَّ يعكس عليـه القصَّة، فيُقْـتل فشعر لذلك، وغلب حـفيدُ ابن ذى النون الفئَة القائمة عليه، ففرَّ منهم مَنْ خلص إلى ألفُونْش، وفرَّ ابنُ عمّار.

ولمّا لم تتمَّ له خـدمة ألفُونْش فى ذلك، نهض إلى صاحب سَـرَقُسْطة، وتخدَّم له خبَر شَقُورَة(٢) (وبها ظُفِرَ به، ووُجِّهَ به إلى المُعْتَمد) فلما ثبت أنَّه استقـرَّ عند ابن هود، غَدَرَهُ فيـها ـ أعنى مُرْسِيـةَ ـ ابنُ رَشِيق، مع استمـالته لأهل البلدة، واستحـسنوا ولايتَه، ولم تكن لابن عمَّار بعـد ذلك رجعةٌ إلى مُرْسِيَة، وصـار خادِمًا عـند ابن هُود صاحِب سَـرَقُسْطة، ولمّا احـتلَّ بذلك القطر، أضرَمَه ناراً، وأهاج فيها فِتْنَةً، وصار سفيراً للإِفرَنْج، وآثرَهُ ابنُ هُود، وقرَّبَه، رجـاءً منه أن ينال على يدَيه ما نال المُـعْتَمـد، للَّذى قام له عنده من الطارُوس بسعادةِ صاحِبِه، لا بأعماله.

وكانت العداوة الواقـعة بَيْنه وبَيْن المُعْتَمد على يدى الرَّشـيدِ ابنِه، فإنَّه، بفسـوقه، كـان يتكبَّر على أولاده، ويضيِّـق عليهم، ويُسىء الصنيـعةَ مع من

(١) شنتمرية: مدينة فى الأندلس من مدن اكشونية، وشنتمرية على معظم البحر الأعظم، ولها سور، وبها المراكب واردة وصادرة، وبها دار صناعة الأساطيل (الروض المعطار).

(٢) شقورة: مدينة من أعمال جيان بالأندلس (الروض المعطار).

يجب عليه إكرامُه من قرابة سلطانه، والمُعْتَمِد، فى هذا كله، يصبر له، ولأنَّه كان قد استمال النصارى، واندخل معهم بحيلة: فمتى ما دهم أمرٌ من قِبَلهم، وجَّهه إليهم، فيَنْجَلى من أمرهم ما يضيقُ الصدرُ به، وكلُّ ذلك بأموال رئيسه وسعادة أيَّامه، وهو بجهله يعتقد أنَّ ذلك لا يتهيأُ إلاَّ بسببَه، ويَرُدُّ الحِسَّ كلَّه إلى نفسه، وكانت هذه المعانى ممَّا أحنق عليه المُعْتمِد، حتّى عقَّب عليه بما كان جديرًا به، وأَمْكَنَهُ الله منه، وجازاهُ بما لم يكن له منه بُدٌّ، ولا رآه لغيره أهْلاً، وكانت شَقُورَة قد أخلها المُعْتَمِدُ، وَبنى صاحِبُها ـ عَبْدٌ من عَبيدِ سِرَاج الدولة ـ أن يَضَعَها فى يديه، فلما صار ابن عمار إلى سَرَقُسْطة، نهض إلى العبد المذكور، عَسَاهُ يرجع إلى طاعة ابن هُود، فثقَّفَهُ وأرسل به إلى المُعْتَمِد، وعند ذلك قَتَلَهُ شرَّ قِتْلة.

وإنَّ ابنَ رَشِيق بعد ذلك سولَّتْ له نفسهُ الخِلافَ على المُعْتَمِد، واحتَجَّ بأن قال: «لم يُقَدِّمْنى إلى مُرْسِيَة!» وزعم أنْ أهل البلد اختاروه، وأنَّ مُقَدِّمَهُ إنَّما كان ابن عمّار متى ذهب عنها، وسنَذْكُرُ من أمْره بَعْدَ هذا، عند ذكر أحوال المُرابِطين ـ أعزّهم الله ـ وقَصْدِهم إلى لِيِّط، ما انقضى من خَبَره عليها مما هو مشهورٌ.

٤٠-عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب إشبيلية:

لَيسَ كلُّ الناس عَلِمَ سرَّ الأمر كالذى نَصِفُهُ نَحْنُ، والدليلُ على ما قدَّمناه ذكْرَه من ارتباط المُعْتَمِد إلى الخَيْر وإيثاره للصُّلْح بزوال هذا الفاسق ابن عمّار عن دولته، لم يُرَ بعده فِتْنة فيما بَيننا وبَيْنه، وحقّق معنا فى كلِّ أمرٍ، كالذى فَعَلْنا نَحْنُ معه، وجَدَّدْنا العَقْد على ما ارتضيناهُ من مُعاوَضات، سِوَى ما كان

قديمًا بيده، مـما خرج عنَّا فى أيام المُظَفَّر، وأخذَت الفتْنةُ عليـه حقَّها، ولم يوجَد فى طلَبِ ذلك خيرٌ، ولا إلى غير المُصالحة سبيلٌ.

فقرَّت الأحوالُ قرارَها، وتَهنَّى كلٌّ واحـدٍ منَّا بمُلْكه إلاً ما كان من سَيْفٍ بَرَّانِيٍّ يعترض بلادنا من الرُّوم، فكان الرُّزْءُ فيه واحـدًا والمشاركة سواءً، وإن كُنَّا لا نقدر على ذلك بـالإمداد بَعْضنا لبَـعْض لضعْفِ الحال، فكنَّا نتـشارَكُ بالمُداخَلة وإعمال الرأى والتحذير من أمْرٍ عسى أن يكون خفى عن الآخر وما أشبه ذلك.

٤١- المؤلف يتحدث عن منهجه فى كتابة مذكراته:

وإذا أَتَيْنا على ذِكـر جُمَلٍ من أحوالِ الأنْدَلس الحـادِثةِ فيـها، المشـهور خَبَرُها حسبما استفاض، وتَركْنا وَصْفَ الاختلافات، إذ يوجد الحقُّ فى طرفٍ واحدٍ، ولم يكن منها ما طولِعَ بالمشاهدة ولا بالمعاينة أكثرَ من إشاعةِ خَبَرٍ، ذَكَرْنا منه ما ينقاس فى العقل، وحَذَفْنا منه الإكثـار والمشتبهات، وإنّه، متى أتينا على ذِكْر خبرٍ حادثٍ فى دَوْلَتنا ممّا حاوَلْناه أو شاهدناهُ أطْنَبْنا فى وَصْفِه، وقتَـلْناهُ عِلْمًا إلى آخـرِهِ، وأخبـرْنا بسرِّه عن جَـهْرِه، وبأرَقِّ الأسـباب فـيه، والإطنابُ فـيما يحـاوِلُ الإنسان أبلغُ وأنْـعَتُ من وصْف المشـاهدة لغيـر ما يخُـصُّـه، كمـا أن وَصف المـشـاهدة، وإن كـان لا نعنيـه، أبلغُ من ذِكـر المستفاض الـذى لم يُوقَف على حقيقته، فإنَّما يُذْكَـر منه ما يقبله العقلُ، ثمَّ يَجْتَـرى واضعهُ على أن يـضع فيه من عـقله دون الأغْلَب عليه عند العـامة، فيصير مُكَذَّبًا.

ولهذا مـا اختَصَرْنا من الـكائنات المشهورة بـالأنْدَلس كثيرًا من الأخـبار

عنها، واقْتَصَرْنا على الإطناب فيما يخصُّنا منها، ممّا حاولْناهُ أو رأيناه عيَانًا، والحقيقةُ من الخَبر عَوْنٌ كبيرٌ على ما يرومُ الإنسانُ من صِفَةٍ فى مَنْظومٍ أو مَنْثورٍ، كالمادِحِ أو الذامِّ، فإنه، إذا وجد إلى المقال سبيلاً، أطْنَبَ وأبْلَغَ، وإن كانت بعض زيادة، فإنها لا تمكن إلاَّ فى الأغلب والأكثر، ويكون فى ذكر الأمْرَيْن مصدقًا لمَعْرِفة الناس به، ولأن كتابنا لم يكن مَبْنيًا إلاَّ على وَصْفِ مَمْلكتنا خاصَّةً «والحديث ذو شُجون» فلا بُدَّ من ذِكر جُمَلٍ من غيرها عند الحاجة إلى وَصْفه أو ضَرْبِ مَثَلٍ به، تزيينًا للكلام وإقامةً للبُرْهان ودورانًا على الحقيقة.

الفصل السادس

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

٢- مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢- عزل الوزير سماجة ثم إجلاؤه واستقلال عبد الله فى الأمر:

وإنّه، لمـا تهدَّنَتْ لنا الأحـوال وقرَّ مُلْكُنا قـرارَه بمُصـالَحة المُـعتَـمِد، ومُعَـاقَدةِ الرُّومىِّ على المُـهادَنة، وتَوْطينِ النفـس على ما نُعطيـه فى العام، انصرف نَظَرُنـا إلى إِصْلاح أمْر بلادنا، والفـتشِ على رَعِيَّـتنا، والكَشْفِ على العُمَّـال إِن كانوا عادِلين أو ظالِمـين، ولمّا شـعر بذلك خَدَمَـتُنَا ومَنْ كان له مَذْهَبٌ فى نصيحـتنا، انتدب جميعُهم إلى الإِعلام بمـا عنده والتنبيه على ما خفى عنَّا زمانَ تلك الفِتْنة، فكنّا لا نقبل من أحَدهم على الآخر إِلا بعد رويَّةٍ وهجومٍ على الحقـيقة، حذراً أن يكون مقال أحَـدِهم حسداً للآخـر أو طَـلَبًا لا يُتَّقَى الله فيه.

وكان سِمَـاجَة، وزيرُ دَوْلَتنا المتقـدِّم ذِكْره، قد شعر بـذلك وأحسَّه منَّا، فاغتمَّ للأمر وعمل فى نفسه، وشكاه إلى إخـوانه، وكان فيما قال لهم: «إِنَّما كُنّا نطمع بالتحكُّم على هذا الرئيس والتمكُّن من دَوْلته مدَّةَ أيَّامِ صبوته، يعنى صغرَ سنِّه، وأمَّا الآن، فلَسْنا نَجِد سبيـلاً إلى ردِّه عن دَوْلته، لا بِفئَةٍ تحمينا، ولا بصغر سنٍّ نَجِد به السبيل إلى صرفِه عند العـامَّة وتسفيه رأيه، لا سيّما إذ كان رأيهُ النظرَ من دَوْلته والبَحْثَ عنها» فقـيل له: «لَسْتَ تَجد سبيلاً إلى أكثر من المُدارة له، والإتـيانِ لمرغـوبه، وقلَّةِ الخِلاف عليـه لئلا يتـمكن عدوُّك منك، ويشتـفى حاسدك عليك، فهـو، إذا وجد منك الذى يرغب، لم يلبث أن يُمِلَّ النَّظَرَ والخِدمةَ ويُفَوِّض الأمْرَ إليك! ثمَّ أنتَ بالخيار عند غَفْلته وإقباله

على راحته! وعليك بإشْغالِه بالنســاء، وعَجِّلْ له ابتياع الرقيق! ولَسْنا نأمن أن يكون يشنأُك من تَحْجِيرِك هذه الشهـوات عليه، فإنه نَظُنٌّ به ما يُظَنٌّ بمن كان فى سنِّه!».

ففعل ذلك، وكانت هذه الفتـرةُ التى دبَّرها من سعادتنا وتمكيننا من آمالنا فى الذى ذَهَبْنا إليه من الاستبداد بمُلكنا، فإنه شَبَّكَ علينا المَعاقِل بينى عمِّه، وأشَـدُّها علينا مـدينةُ المُنكَّـب، فجـعل يطلق لـنا العِنَان فى كلِّ مـا نُريده، واشترى الرقـيق، وجعَلَنا نَخرج إلى النزاهة فى البـلاد، يُرِى بذلك الإنصاف والتأنِّىَ، إذ كان الرجل متَثَـبِّتًا، خائفًا من سوء العاقبـة، مع أنّه كان خائفًا من قبْل ذلك من أجلِ كُتُبٍ استَعْـمَلها على ألْسِنَتِنا أقوامٌ من أعدائه إلى طائفةٍ من صِنْهَاجَـة يأمرون فيـه بقتله، ونَحْن براءٌ منها، فظفـر بالكُتُب، وأنزل بنا التهمة، وأمر بقَتْل أولئك المُسَـمِّين فى الكُتُب، وغَيْرِهم ممَّن اتّهم من كرائمِ باديس ـ رحمه الله.

وكانت تلك المعانِى مقدِّمات تُغازِلُه لعزْلَته، فلمّا كانت وجهتنا إلى وادى آش عن اختياره، وقـد كنتُ علمتُ مُعتَقده فى ذلك كلِّه بالقـياس والمَيْز مع بعض الأخبار، قلتُ فى نفسى: «هذا رجلٌ قد اعتاد الأمْرَ والنَّهْىَ، ورأى من يَقْظَتِنا للدولة ما لم يكن يُريده، وليس فعْله هذا بهواه، وكلُّ شىءٍ يضطرُّ فيه الإنسان، فإلَيْه لا يؤمن خلافه، والرجعة عنه، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه! فنكون أبدًا نكابد منه ما لا يوافِق! وإن فاتَتْنى هذه المرَّة، أكُنْ كمَنْ نُبِّه على أمرٍ وحذِّر من نفسه، ثمَّ أوبق نفسه إلى المضرَّات، وإن أغضَيْنا هذه المرَّة وعاد إلى مـا كان، ثمَّ نَرَى منه خلافًا، لم نقـدر عليه بشىءٍ، إذ يكون

نَظَره لنَفْسه أجْوَد من هذا النظر، فإنَّ هذا الأمْر منَّا جاءَه فجأةً لم يحتسبْه ولا ظُنَّ به، والفُرَصُ تُمرُّ مرَّ السحاب! فما دُمْنا نَحْن عليه، لا نتربَّص حتى يكون هو بالخيار علينا!».

فأراد إشاعة عَزْلَتِه بالحضرة عند إمكان السَّفَر، فلم نَرَ لذلك وَجْهًا إلاَّ ونَحْن خارجون عنها، ليكون أشنَع فى الناس وأقطَع ليأس الرعايا، مع أنِّى، إذا حركتُ هذا بالحضرة، دخلَته الصُّناعة وكتم عن الناس، وشغَّبَت امرأتُه من الدار.

فلما وَصَلْنا وادى آش، جعلتُ من يدوس إلى الرعيَّة أن ترفع بمَظالِمها، وكان عاملَها ابنُ أبى جوش، صَنيعةَ سِمَاجة المذكور، فأمرتُ عند شكواها بثقافه، فأنكر الناس ذلك، وهان عليهم أمره، وجمعتُ الرعايا والوزراءَ، وحَدَّدتُ لهم حَدًا يَقِفون عنده ألا يجعلوا بَيْنى وبَيْنهم واسِطةً، وأمَرْته هو بالتزام ما يخصُّه لنفسه، وأن لا وزير لدَوْلتى إلاَّ نفسى، وحَددت لكلٍّ خادم ما تكون طريقتُه أن لا يتعدَّى سِوَاها، فسرَّ بذلك جميع الوزراء، إذ تساوَتْ أقدامهم، وانكشف حِجابى لهم، لكى تكون حوائجهُم إلىَّ دونَ مَنْ هو مِثْلُهم أو دونَهم، واغتبط الرعايا بعزلة الظلَمة عنهم، وعزلتُ كلَّ من يتَّهم بخيانة، وقدَّمتُ عُمَّالاً إلى الجهات، أُريد تجديد الدولة، وعزلتُ بنى عمِّه من الحصون، ولقد كان فريقٌ منهم، لمّا سمعوا بذلك، يفِرُّون منها ويتْرُكونها حتّى يوَجِّهَ إلىَّ جُنْدُها عن قائدٍ، ولم نَلْقَ فى ذلك كُلِّه مَشقَّةً، ولم يَبْقَ إلاّ ابن عَمٍّ له، صاحِب المُنكَّب، فجزع، إن تَرَكَهُ، أن يوجَد إليه السبيل بسَبَبِه، فأخبرنى بالأمر، وسألنى إرْسال قائدِى إليه، فعزِل، وسأل زَاوِىُ زوالَ

أخيه بَلْـبَار عن وادى آش، فكان ذلك كلُّه على أمْكَن سعادة وأجْـوَد تقدير، للذى شاءَ الله من تمام أيَّام وزارته.

ثمَّ أمَّنْتُـهُ فى نفســه، وأبقَيْتُ عــليه جـميعَ أمـواله إلا الذهب والفضَّــة، وسوَّغْـتُه إنزالاً ينعاش فيــه، وأمَرْتُه بلزوم مَجْلِسى وأنَّه مُكَرَّمٌ طول حــياتى، فـقَبلَ الرجلُ ذلــك كلَّه، وأطاعنا فى كلِّ أمْـر أرَدْناهُ دون خلاف ولا إظْهـارِ لمَعْـصية، فـإنَّه كان جزوعًا، قليـلَ الجرأة على العظائم، ولأنَّه لم يَجدْ فـئَةً تُعـينُه، ولِثقَـتى بذلك أمَّنْتُهُ فى نـفســه، ومضى عليـه دَهْرٌ طويلٌ على لزوم المَجْلِس دون خدْمة، فلم يَتْرُكْهُ.

وخاف منه مَنْ سعى فى أمره من أهل الـدولة، وتوقَّعوا منه العودة، فلم يزالوا يُغْرون به، وينقلون عنه من قـبيح القول، ويخافـون مـن مــغبَّة أمْـرِه، ما لم نَرَ معه وَجْـهًا لإمساكه فى البلدة، احتيـاطًا على أنْفُسنا، وربَّما كدحت بعضُ تلك الأقاويل، فهَلَكَ من اجْلِها، ولا استْطَعْنا حينئـذٍ على مُعاقَبته لِمَا ارتكب فى صَدْر الدولة من قَتْـل أولئك النساء ومَنْ جرى مجراهُنَّ، لشـركته فى ذلك مع سِواهُ من شـيوخ تَلْكَاتَة، فيسوءُ ظنُّ الجـميع، وتفسد من سَبَبِه الأحوال، فلا يقوم فسادُ المَمْلكة وسوءُ عاقبة الأمْر بما يلزم من إقامة الحدِّ، فرأينا من الـصواب أن يرتحل عنَّا دون تغـير ولا إبلاغ فى عقـوبة، استـمالةً لأنْفُس الناس، وبَسْطًا لأموالهم، فـخرج بجميع إثاثه وخَدَمـه ودَوابِّه وجميع ثيابـه وفرشـه، مـشَيَّعًا إلى ألْمَـرِيَّة، فكان المُعْتَـصِمُ يكرمه من أجْلنا، ولا ييأسُ أن نصرفَه إلى منزلته، فيـقدَّمَ ذلك الإكرامُ عنه، وخَرَجَت امرأتُه بحَلْىٍ كثيرٍ من الجَوْهَر، حاشى مـا خفى عنَّا من المال، وإنَّما صار إلينا ما أعطيناه

بأيدينا من الذهب والفضَّة أوَّلَ ولايتنا، وَقْتَ فَتْح بيـتِ المال، ولـم نتحقَّق ما اكتسب منها مدَّةَ خِدْمَتِه لنا، ولا بَحَثْنا عن ذلك.

٤٣- النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة ألمرية

تعاقب أحداثه وحله:

ثُمَّ قُمْنَا من بـعده فى أمور البـلاد والرعايا بأحْسَنِ قـيامٍ وأتَمِّـهِ، وجَعَلْنا الأُمَناء على البحث والتعـقُّب ورَفْعِ المَظالِم إلينا، ودام الأمْرُ على ذلك دَهْراً طويلاً.

وإنَّه، فى إثْرِ مَضى سِـمَاجَة المـذكورِ إلى ألْمرِيَّة، بَلَغَنا أنَّه حـقَّر الدولة لابن صُمَادِح وطمَّعه فيها، لِمَا كان يَرَى من طمع الرجل الـذى قد شهـر بـه ـ رحمه الله ـ فإنه كان كثيرَ الطمع، قليلَ الـجسر، ضعيفَ المنَّة، فعمل قَوْلُه فى نفـسه، ورَجَـا أن ينالَ على يديْه فُـرْصةً بـمُداخلةٍ أو إدْلالٍ على مَـوْضعٍ فائدة، كالذى تَهَـيَّأ له مع اليهودىِّ.

ووافَقَ ذلك أن وَقَعَتْ بين قائدَى النَّظَر ما بين فِنْيانَة والمُنْتُورِى مُشاجَرةٌ، على الجهات، ولم يتهيَّأ حيـازة ذلك النَّظَر إلاَّ بُنْيَان المُنْتُورِى المذكور، وقد كُنْتُ، عند وجـهتى إلى فِنيـانَة، أرسلتُ إليه رسـولاً يُعلمه بورودى علـيه، وسألْتُه تلك القُرَى المصاقِبـة لها وإنَّها أوْلَى بذلك المَعْقِل لقربها، وتطارَحْتُ عليه فـى المُكارمَة بها، فـكان من جوابه للرسـول: «هَيْهات! ليـست تُمْلَكُ الأقطارُ إلاّ بالبُنيان والسَّـيْف!» فلمَّا علمتُ مُهِمَّ ذلك الحِـصْن على الْمرِيَّة، وبَلَغَنى ما كان من تـطميع سِمَاجة، وتذكَّـرتُ مُراجَعته عن القُـرَى، أغْضَبَنا ذلك ولم نُؤَخِّـرْ أن عاجَلْنا ببُنْيـان ذلك المَـعْقِل، فـقام على المـقام بالجِـدِّ

والقوَّة، وجَـعلْنا فيه حُمـاة الرجال، وضاقت ألْمَرِيَّةُ من أجْله، واحْـتِيجَ إلى بُنيان مَعاقِلَ غَيْرِها، تَوَقُّعًا أن نسبق إلـيها، فيكون عِوَضًا عن المُنْتُورِى، فقام بُنيانُهـا على ساق، وصارت كلهـا حرزًا للجهـات التى لنا، وأقْفالاً عليـها، وضَرَرًا على جِـهات ألْمَرِيَّة، فعـيلَ بالأمر، وضاق به ذرعًا، وكـان لا يُوجِّه عسكرًا إلى موضع إلاَّ هُزِم، وأَسَرْنا كبارَ رجال على طُرَّلْبَش.

وكان عِدَّةُ مـا بُنِيَ عليه سبـعة حصون، وكنتُ مع هذا آمُـرُ أهْلَها بالرفق وحرزِ جهاتها الاَّ يتطرَّق إلينا طالبُ شر، وإنِّى إنَّما بَنَيْتُها صَولةً وتَهَيُّبًا، حتى نُصالِحَ الرجُلَ على مـا يَقَع بموافَقـتنا، ويعرف أقدارَنا، وإنَّه، لمَّـا ظهر من كَلَب الرُّوم على الأنْدَلُس مـا ظهر، ورأيتُ نفـسى ظافرة مـتى رُمْتُ مع ابن صُمَـادِح فِتْنةً، وتبيَّن لى ضـعفُه عن المُنـاظَرة، صرفتُ نفـسى عن التـمَادى والإلحاح، وقُـلْتُ: «أنا فى مِثل هذا مُـدْرِكٌ! لا يفوت من الأمر مـتى أرَدْناهُ شىء، وحسبُنا ما قد ظهـر إلينا، فالإبـقـاءُ أوْلَى، وإصـلاح الأمْـر مـع الجار ـ وجارٌ ضعيفٌ يُبْـقَى عليه ـ خَيْرٌ من تَهَيُّئِنا لقَـوِىٍّ لا يُرام! ولقد كان المُظَفَّرُ على بَصِيرةٍ من إثباته لدَولته وإبقائه عليه، ولنا فيه أُسوةٌ وقدوة!».

فـصالَحْتُ الرَّجُل، وأمَـرْتَ بهدمِ تلـك الحصـون، ونُشِرَت ألْمَـرِيَّةُ من كفن، وتمكَّن بعد ذلك، ودنَّا، وصار أصدَقَ الناس لنا:

ولا خَــيْـرَ فى حِـلْمٍ إذا لم تكُـنْ لَهُ
بَوَادِرُ تَـحْـمِى صَــفْـوَهُ أنْ يُـكَدَّرَا

فلم نَزَلْ متعاقِدَيْن مُتشاركَيْن فى الحلو والمُرِّ إلى انصرام الأجَل.

٤٤- توجيه عسكر ضد تميم بن بلكين صاحب مالقة وأخي المؤلف، ونصره إياه:

ثمَّ لم نلبث بعد ذلك إلاَّ يسيراً حتى جاءنا من أخينا تَمِيم فحمةٌ لم نحتسبها بعد أن رأى ظهورَنا، وصُلْحَنا مع سلاطين الأندلس، وما صنعناهُ بجهات الْمَرِيَّة، لم يفرق بين هذه الحالة والحالة الأُولى، لغرارة الصبا وقت اصطكاك الفِتَن والشغل الشاغل، فحسب الزمانَ كلَّه واحداً، ولما سُكِت عنه قبلُ، لهذه العِلَّة على ما قدَّمنا ذكره من بدءِ أمره، تمادى على تلك الأفعال، فأرسل قَطائعه إلى حرب المُنكَّب وشَاط[١]، وخُوَيلةَ فى إِثرِها للضرب على النَّظَر المُصاقب لها، وأتانى أهل تلك الجهات شاكين بالأمر، فقلتُ فى نفسى: «هذا إنسانٌ لم يُبصِرْه الدهر، ولا حكمتْه التجارب: ومتى تركناه على هذا ذائبًا، ولم نؤدِّبْه عليها، تمادى شرُّه، وحسب أنَّ ذلك لهيبته، فازداد، ولا تنفع فيه مَوْعظةٌ ولا قيلٌ!» فلم نجد بُدّاً من تأديبه وزجره، فإنَّ الشيءَ تحقره وقد ينمى! وإِنَّما كان ذلك الإغضاءُ لَمَعانٍ تُوُقِّعَتْ، وانتظاراً به لحسن العودة وروية البصيرة، فإذا قد يَئِسْنا من هذا وأَمِنَّا ما يُشْغِلنا عنه، فَتَرْكُهُ على هذه الضلالة من العجز والخرق!».

ووَافقَ ذلك الزمان اشتغالُ المُعتمِد بأمر أَلْفُونْشُ، فإنَّه نازَلَ إِشبيلية لتباعات تسبَّب بها، وضاقت الحال من أجْله، فاتَّفق الأمر وتهيَّأت الأسباب على حين غفلة وَانتهاز فُرصة، فنهَضْنا بأنفسنا إلى ذلك القطر، فوالله! ما سمع بنا أهل حصونه، ولم نتداركْ بالخروج صبيحة ذلك اليوم، حتى وَرَدَ

(١) شَاطُ: حصن بالأندلس من أعمال كورة إلبيرة، كثير الشجر والفواكه والخيرات (ياقوت).

علينا عن حِصنِ القَصْر بجهة صَالِحَـة أنَّه صار فى مِلْكِنا وطاعَتِنا رعيَّته، وهو حصنٌ أوَّلُ مـن يطوع وآخِرُ من يعـصى لذَوِى الغلبة والظهـور، فاسـتبـشرنا بذلك، وصِرْنا إلى الحَـمَّة⁽١⁾، نروم منها أمرَ ذلك النَّظَر، فـأُعْلِمْتُ بصَخْرة دومِس (ولا مـعنًى لرِيَّه⁽٢⁾ إلا بها، وهى موسطة البلد) وقد اجـتمع فيها جلٌّ عساكر مـالَقَة مع قوَّاد صاحِبـها، فلو انتُزِعَتْ تلك الشوكةُ، كان أمْـرُ غيرها يسيرًا هيِّنًا، فاستَعددْنا لقتـالها، وضارَبناهم فى أوَّل النزوع عليها، فجزع مَنْ فـيهـا من الجُنْد، وأرسلوا إلينا الليلـةَ يطلبون الأمـان، ويخـرجون بخـيلهم سالمين فى مهَجِهم، فأجبتُـهم إلى ذلك، عسى أن نكون نستميل غيْرَها بهذه الأيادى، وأخلوا الصَّخْرَةَ، وصار فيها جُنْدُنا.

وانتقـلْنا عنهم إلى حِصْنٍ كـان صاحبُ مـالَقة قد بـناه لقطع الطريق بيننا وبينه أوَّلَ قيامه، على ما رسمناه، فلم يكن إلا ساعة قدومنا عليه وتَخاذَلَ مَنْ فيه، ودُخِلَ قسـرًا، وهو حِصْن أشْتنير⁽٣⁾، ثمَّ نَهَضنا إلى مَـرِيَّة بَلَّش، فألقت بيدها، وأردتُ التمادى إلى بِزِلْيانة⁽٤⁾.

---

(١) الحمَّة: من عمل المرية.

(٢) ريه: كورة من كور الأندلس فى قبلى قرطبة (الروض المعطار).

(٣) كذا فى المطبـوع، والذى في الروض المعطار: أشتَـبين: حصن بالأندلـس على يسار الطريق، تحت أصل جبل ممتنع، لا يدركه لمقاتل طَمعٌ.

بنى عليه بعض الملوك حصونًا كثيرة، وحوصر مدةً سنة ٣١٣هـ.

وبعد لأى ما افتتح وذلك فى عقب سنة ٣١٣هـ.

فلعل هذا الحصن هو المحرف فى المطبوع.

(٤) بزليـانة: قرية على ساحل البحر، قريبة من مالقـة، وأرضها رملٌ، وبها الحمّام والفنادق (صفة جزيرة الأندلس).

وكان كَبَّابُ بنُ تَمِيت صاحبُ أُرجُذُونة[١]، قائدُنا، قد استفْلَك فى تلك الجهة، وزعم أنَّه لا يتعزَّل إلينا، فلمَّا رأى ظهورَنا فى هذه المَعاقِل، خاف أن يَصفُوَ الجوُّ ويصرف البال إليه، فرام أن لا نَصِلَ إلى بزلْيانة وحذَّر من ذلك، وكان وراءَنا حِصنُ مُنْتُ مَاس، ورأيتُ أنه لا تتمكَّن لنا مُنازَلَةُ مالَقة إلا بالراحة منه، فإنَّه يمنع الميرة إلى المَحلاَّت، فانصرَفْنا من بزِليانة نريد مُنْت مَاس المذكورة، وأظهَرْنا لكبَّاب الأخْذ برأيه، فسرَّ بذلك.

ولما نهضتُ إلى مُنْت مَاس، رأيتُ مَعقِلاً عظيمًا، قد اجتمعت به جميع الرعايا، فعَرَضْنا عليهم الطاعة، فأبوا، خيفةً منهم أن نكون غدًا نُصالح أخانا ويُعاقِبَهُم، فأمَّنَّاهم من ذلك، واجتمع فيه كلُّ فاسِقٍ من أهل الشرِّ، وأعْرَضْنا عليهم الحرب بأنفُسنا، وتَركْناهم على ذلك، ورتبْنا عليهم الرُّتب وانصرَفْنا إلى غرناطة، وفى انصرافِنا، طاعَتْ لنا غيرُها من المعاقِل، مثل أيْرُش وصَخْرة حَبِيب، وكُنا فى أوَّل وجهتِنا قد أخَذْنا رَيَّنَة بالسيف قسرًا، وطاعت لنا جُطْرُون، وهُما قَصَبتا مالَقة، وطارت فى تلك المدَّة عن يده عشرون مَعْقِلاً، وانصَرَفْنا إلى مُنْت ماس ثانيةً، ويئِسوا من تَرْكهم، وطاع أهلُها، وثقَّفْناها، وهدَمْنا من الحصون ما نستغنى عن إمساكه بغيره، وأمَّنتُ الجِهَة وبحثتُ عن فوائدها، وصار ذلك مُقَيَّدًا، وأوْسَعْنا أهلَها خيرًا.

ولما رأى أخونا ما دهمه من الأمر، وقيامَ رعيَّته عليه، خاف على نفسه من أهل البلد، مع تَبْريزنا نَحْنُ عن مالَقَة فى حين أخْذِ مُنْت مَاس، واشتغل

(١) أرجذونة: بالضم ثم السكون وضم الجيم والذال المعجمة، وسكون الواو، وفتح النون، وهاء: مدينة بالأندلس (ياقوت).

بعض الناس بقتال انحازوا إليـه دون مَوْضِعِنا، وتبعهم أكثرُ عـسكرنا، فانتهز أهلُ مالَقـة الفُرْصة، لمـا رأوه من قلَّةِ مَن فى المَوكِب معنا، وخـرجوا على باب فُنْتَنَالَّة، وحملوا على الـعسكر حملةً اختلط فـيها الفريقـان، ولمَّا رأيتُ فُرار مَنْ معنا واختلاطَهم بجُنْد مالَقـة، أمْسكْنا على العَلامات، وأمَرْنا بضرب الطبل بعد تولِّيه، حتى اجتمع إلينا بعضُ الناس لمَّا رأوا ثبوت العَلامات، ثمَّ كانت لنا عليهم الكرَّة، بعد أن أُسِر بعض رجالنا، فأنقذوهم، وهزموا عَسْكَرَ مالَقـة، وكان بها مـن جُنْد البَرْبَر نحو ثلاثمـائة فارِس أنجـاد، إلا أنَّ الحزم دَاخلَهم، ونزع إلينا أكثَرُهُم.

ولمَّا رأى بعضُ من معنا تلك الهزَّة، أشار علينا بالانصراف، وخوَّفَنا من تَقْـوِيَة ابن عَبَّـاد أن تَدْخُلَها مـا لا يُمكن، فقُلْت: «إن الانصـراف على هذه الحالة عَـجْرٌ! وسيشيـع فى الجهةِ كلِّها أنَّ رجـوعَنا لم يكن إلا عن هزيمة! فالأولَى أن نكسِّـر يومَين نُبَرِّزُ فـيها كل يوم فى المـوضع الذى الْتَحَمَتْ فـيه الْخَيْلُ، نُرِيهم: إن كانت بكم قدرة، فعَاوِدوا ما فَعَلْتُم!» وثقَّفْتُ العسكر لئلاَّ يطيش منه أحَـدٌ، فكان ذلك، وأقْلَعْنا بعـزَّةٍ حـتى وصَلْنا نَظَرَنا على أتَمِّ مـا يُمكن، ولو رَفَعْنا أوّلَ تلك الـوهلة، خَلَتْ جميعُ المـعاقِل التى طاعت لنا، وكأنَّنا ما صَنَعنا شيئًا.

فبَقِـيَت الحال ضيِّقةً عـلى مالَقة، وأرسل إلينا أخونا، يستعطف ويسأل العَفْوَ وإقالة العثرة، فدبَّرْنا أمْرَه فى أنفُسنا، وعملْنا فيه رأيًا سديدًا، وعلمنا ما هو عليه من الحَرْص والشـرهِ والحدَّة، وأنَّ صَرْفَ المَعاقِل إليـه تَقْوِيَةٌ لشرِّه، وأنّه، إن عاوَدَ بما كان عليه، لم نقـدر له على شىء، ولا تطوع بَعْدَها رعيتّه

(١) عَجَرَ الرَّجُلُ عَجْرًا: مرَّ سريعًا من خوف أو غيره

إن أَرَدْناهم بَعْدُ، لِمَا يَرَوْن من إسلامنا لهم إليه، وخـافوا أن يُعاقِبهم، مع ما كانوا ينقمون عليه من سوء الطريقة مـعهم، يُعْلِنون بذلك، وأخذوا مِنَّا ميثاقًا غليظًا الا نُسْلِمَـهم إليـه، وعاهَدْناهـم على ذلك بأيمانٍ مـغلَّظة، وظهـر من أقاويلهم أنَّهم، متى رُدُّوا إليه، لم يجـيبوا، وأدخلوا الداخِلة، وصيَّروها إلى رئيس غَيْرنا، فخفْنا من هذه الوجوه ما يجب أن يتوقَّع.

ثُمَّ لم نَرَ وَجْهًـا فى الإِلحاح عليه، فـربَّما أخْرَقَ، وصيَّـرَها إلى سِوانا، كالذى صنع ماكْسَن عـمُّنا بجَيَّان، فتكـون مُصيبـةً للبلدة، وعاراً عظيمًا، من تَوْلية أخـينا وشقـيقنا إلـى غَيْـرنا، وتَـغرِيبه فى البـلاد، وأُمُّه فى قـيد الحيـاة، ولو لم تكُنْ. فأبقينا عليـه، وقد أدَّبناه بما كفى، ووسـعْنا عليه فى النَّظر مـمَّا لم تَـبْقَ فيـه من الرعـيَّة، وكـان مُهِـمّـا عليه، وأخـلَيْنا له رُيَّنة وجُطْرُون، فإنَّ رعيَّتهـا نصارى، وهُمْ بَيْن النَّظَرَيْن، لا يقدرون على نفاق مع أحَد، وأعطيناه قُـرًى يتَّسع فيهـا لمَرافِقه، وبقيَـتْ بيده حُصُون الغَرْبـيَّة مِثْل قَرْطَمَـة، ومِيشش، وحُمَـارِش، وأعطيناهُ قَامَـرَة، بَلَدَ الزرع، ليتَّـسِعَ فيـها للحَرْث، وحـرَّمْناهُ غَيْرَها، التى يتوقَّـع من أهْلها ومنه: إن استأسَـدَ بها، لم يؤمَن شَرُّه.

وبَقِيَـتْ حـالُه فى أفضل الأحوال، مـا رَضِيَتْ به الوالِدة وحَمِدَهُ جـميعُ الناس، صِلَةً للرحـم، وعَـفْـواً عند المقـدرة، وتأديبًا لـمـا يخشى عاقبـته، وقرَّ حـالُه قرارَه، ونَفْـسُـه فى هـذا علينا حـاقدةٌ، تَبْلُغنا عنه أقـاويل سيـئةٌ، ونحن لا نعرج عليهـا ونقول: «إضْرارُه بالقول خَيْـرٌ من إضرارِه بالفعل، لو صَـرَفْنا إليه المَـعاقِل! وعَلِمْـنا أنّه فى عافـيـة ونعمـة طـائلة مـمَّـا عنده من

الأمـوال التى ترك جـدُّه بمـالقـة، لم يحوج قطُّ إلـى نفقة دِرْهَم مـنها، ولا نالَته فِـتْنةٌ، ولا بلغه مكـروهٌ، وكُنَّا نَحْن أَمامَـهُ نُقاتِل عنه العَـرَب والعَجَم، ونعـطى عـنه الجِزْية، وهـو فى دَعَة، فإذا كـان بيـده فوق مـا يكفيـه لقِلَّةِ تَمَوُّنه واحتـياجه إلى نفسه فى التـمَوُّن والنفقات، فإنَّ هذا كـثيرٌ، وهو تحت نِعَم جـمَّـة!» فطابـت أنفُـسُنا على ذلـك، وكَفَّ هو عن كـثيـر مـمـا كـان يرتـكب مـن القـتل والظـلم، حتى أنه لا يَرِدُنى من عنده رسولٌ من أهل بَلَده أو جُنْده إلاَّ ويوصِّى أن نشدَّ بيدى عليه، ويقول لى: «بتأديبك له فَلَحْنا وكفَّ عنَّا، وإنَّه، مـتى يأمن منك أمْرًا، طغـى علينا، وشقـينا به، وما فى الدنـيا أشْعَرُ منك فى إمْسـاك تلك المَعـاقِل عـنه، فإنك كنـتَ بعـد هذا لا تلجمه أبَدًا!» فخـرجـت الأُمور خَيْـرَ مَخْرَج، وأمَّـنَّا جِـهتَه بسَـتْره فى مكانه، ولم نفجع فيه أُمَّه.

٤٥- ذكر ثورة كباب بن تميت وثورة بني تاقنوت ونهايتهما:

وإنَّ كبَّابَ بن تَميت، قائدنا بأُرْجُذُونة وأَنْتَقَيْرة(١)، لمّا رأى ظهورنا على مالَقة، أكبَـرَه ذلك وشقَّ عليه، وعَلِمَ أنَّ الأَمْرَ منْجزٌ إليه، إذ كـان قد أضْمَرَ نفـاقًا وطـاعةً فى مَـعـصِيـة، لِمَـا تأسَّس به هناك فى حـين الفـتنة من ضَمِّ الأطْعِمة، والاسـتحواذ على أموال الناس بقَطْعِـه السُّبُل، وانقطاعِ أهل الشرِّ إليه من كلِّ قطر، وكـان أمْرُه من ذُنُوب سِمَـاجَة عندنا، الذى سـوَّغه البلد، وجَعَـلَه مِلْكًا فى يده ويدى بنى عمِّـه، حتـى شقى به، ولمَّـا تمَّ صُلْحُنا مع المُعْتَمِد بن عبَّاد، خالَـفَنا فيه، وجعل يُفسد وينقض ما أبْرَمْناه من ذلك، ولا

(١) أنتقيرة وبالإسبانية Antaquera أندلسية حصينة تقع شمال غربى مالقة.

يقرُّ عن الضـرب، فجـعَلْت أقدمُ إليه المَـرَّة بعد المَـرَّة، وأنذُره عاقِبـة اتِّباعِ هَوَاه، وأقـولُ لـه: «إنَّ لـلمُصـالَحـةِ وقتًـا ينبـغى للمَرْءِ حِـفْظُهـا، فـإذا أفْسَـدْتَها، فأنْتَ من المُطالبـين لى!» فلا يَزْدَجِرْ مع هذا كلِّه، ولا ينفع فـيه وَعْظٌ، لإعجـابه وتحامُـقِه، وكـانت كُتُبُ المُعْـتَمِـد أبَدًا تَرِدُ بالشكوى منه، فأضْمَرَ لما من كفِّه غائلةً، وكانت من سعادتنا أنه لم يجمل المُعامَلَة مع أحد الفريقَيْن.

فلمّا طـال الشكوى به، قلتُ لرسول المُـعْتَـمِد: «لا أسْتَطيعُ عـلى عَزْل كَبَّاب إلاّ بالمُـجاهَدة فى مُفاسَدَته، فإن اسـتوثَقْـنا منكم أن يتـرامى عليـكم ولا تقبلوه، فنَحْنُ ضامنـون لعَزْلَته!» فارتبط معى على أن لا تُقْـبل له رجعة ولا تُقال له عثرة، فألْحَحْتُ على كـبَّاب فى أن ينزل عن المَعْقِلَيْن، ثِقَةً منِّى بما رَبَطتُّـه مع المُعْتَمِـد، فزاد طغيـانُه، وخاطَبَ على المقام إلى ابن عَـبَّاد، يرغب فى تصيير الحـصون إليه، فأرسل إلىَّ المُعْتَمِـدُ بكتابه، وحضَّنى على شدِّ اليد عليـه والراحة منه، ففعلتُ ذلك، وهذا مِمَّا تقـدَّم ذِكْرُه من إنصاف المُعْتَمِـد لنا وقلة خِلافه علينا منْذُ فارَقَ ابن عَمَّار، كـالذى أجْمَلْنا نَحْنُ معه فى أمْرِ بيَّاسَة، وقتَ نفاق أهْلِها وأرْسَلْتُ كتابهم إليه.

وإنّ كَبَّابًا قبل ذلك، لمَّا رأى صَنيـعنا بمالَقة، على ما قدَّمناهُ، نظر ـ فى زَعْمه ـ لنفسه وقال: «هذا ما صنع بأخيه! وطاعت له الرعايا! فكيف بمن هو عبدٌ من عـبيده؟» وأحسَّ ذلك فى نفسه ابنُ تَاقَنُوت، صـاحبُ مدينتنا، وكان امْرَءَ سَوْءٍ، كثير الطغيان، بعـيدًا من الخير، مؤثرًا للشرِّ، وكان له أخٌ بحصن جَرِيشة، قد سَـوَّغَهُ أيضًا سِمَاجةُ إقليم نِيـمَش كلَّه، وطال مكثُه فى الحصن

سبعة أعوام، فسولت له نفسه مثل ما أضمَـر كبَّاب من النفاق، فتعاقَدَا جميعًا وتحالفًا أن لا ينعزل أحدُهما إلا بعزلة الآخر.

فَشَمَّرْتُ(١) للأمر، فأول ما ابتدأتُ به النَّظَر فى أمر ابن تاقنوت، إذ كان أهم علينا من أجل مدينتنا التى كانت بيده، وجَرِيشَة بيد أخيه، ورأيت معاقدة المعـتمد عليـه آكد، إذ علمت من حنقه على كـباب أنه لا يقبل له مـعذرة، فعاملنى على ذلك أيضًـا بأحسن مُعاملة، وتسرَّح بعسكره قُـوَّة إن احتيج إليه لحرب جـريشة، وشارك غاية المـشاركة فى التوسـط بيننا وبينه، وأرسل إليه رسوله، يقول له: «إن كنت جزعت من رئيـسك، فاترك حصنه! وأضمن لك عنه الحال الصالحة والأمان والإحسان، وإن كنت لا تثق بهذا كله، فانزل إلىَّ بعد أن أعطيك عهـد الله وميثاقه ألا أسلمك إليه أبدًا» فـما كان جوابه إلا أن قال: «وما تصنعون بالحصن؟» قال: «أصيره إلى صاحبه!» فأبى وقال: «إنما أريد أن أجعل المعقل بيد من يذيقه الشر ويتولى فتنته!».

فأتانى ابن الأصبحى رسول المعتمـد، المتوسط لخبره، فقال لى: «اعزَم على منازلة الرجل! فليس فيه إلى الخيـر طريقٌ، وهو متأهب للشر، لا يقنعه إلا الإضرار بك!» وكـان فى هذا كلِّه يقطع السـبل، ويخيف الناس، ويقـتل أهل الرفق، ويطلـع أموالـهم إلى الحـصن، مـا كـان أشـهـر فى الناس من الشمس، حتى لا يتجرأ أحد أن يجتاز بشىء من تلك الجهات.

فاستخرت الله على منازلته، ومكثتُ عليه ستَّة أشهر، لا نبالى عما ننفق عليه من الأموال، إلى أن رقَّتْ حالُه، وأنا فى هذا كله أقدِّم إليه وأبلى العذر عنده، وأخوه فى ثقافى، وأمرتُ أخاه بأن: «اكـتب إليه أنى متى أخذته على

---

(١) فى المطبوع: «وشـعرت» بالعـين بعد الشين، ولا وجـه له. وشَمَّـر فى الأمر: خَفَّ ونهض، وللأمر تهيأ.

غير عهـد، بَرَّحَتْ بقتله، وإن كان نزل على الأمان قبل أخـذه، ولو بساعة، لم يتوقع مِنى شيئًا!» فوالله! ما تَرِدُ علـيه هذه الكتب إلا ويزداد طغيانًا وشتمًا وحماقة، حتى يسر الله أخـذه، ودُخِلَ الحِصنُ، وكفى الله شرهم، وطهرهم من البلاد، وأراح منهم العباد.

وشاورت كبار البلدة وفقهـاءها في خبرهم، فخيرونى فى الذى حض الله عليه من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ (المائدة: ٣٣) الآية، فرأيتهم مستوجبين للصلب، وأنه أدهى وأمَرُّ من أن ينفوا من الأرض، فإن شرهم لا يؤمن، وكثيراً مـا كان المسلمون مرتقبين لما حلَّ بهم! ووالله! ما صـرفتُ وجهى لأحد خاصـةً وعامة من أهل بلادى إلا ووصف لى من أفعالهم القـبيحة ما تروا بها جمـيع الناس، ولقد كان يوم قتلهم للناس عيداً كبيراً من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرهم.

وإن كباب بن تميت المـذكور، لما رأى ما صنع ببنى تاقنوت، زاده ذلك حماقـة واستيحاشًـا، وخاطب المعتـمد، على ما قدمنا ذكره، فـأرسلنا إليه نعرض عليه التخلى عن المَعْقِلَين، فـأبى ذلك، وأعد، واستعد بآلة الحرب، وضمَّ الحراسة وأخـاف السبل، وقطع الطرق وأتى بما هو مشـهور من شره، فاستخـرت الله على منازلته، وأمرت بضم الأجناد واجتمـاع الأنداب لقتاله، فكان ذلك على أتم ما يمكن، ولما أحس من نفـسه بالضعف، وأنه لا ملجأ له ولا مهرب إلى أحد بقلة إقبال السلاطين عليه، ترامى علينا، وسأل العفو، خوفا أن يحل به ما حل ببنى تاقنوت إذ لم يقبلوا الأمـان قبل الغلبة، فأعطيته من العفـو ما سأل، ليكون ذلـك قدوة لمن سأل منا العـفو بعد الإسـاءة فلا

ييأس من فعلها، إن دفعنا إلى مثلهـا بعدها، وكانت الأولى عظة وشُغْفَةً لمن نفر، ولم يقبل الأمان وتمادى على الطغيان.

وكنـا لا نقـدم شيئًا ولا نؤخـره مـن هـذه الأمـور إلا بعد روية وفكرة فى العاقبـة، ونـــدع مشـورة النـاس، فإنَّا بلونا منهم قلة التحـقيق، والنطقَ على الهَوَى: فـإمـا مفتـون بأمر يزينه ويحـمل عليه، وإمـا كاره لخيـر أو مطالب لأحد، فيجعلنا نَحيدُ(١) عمَّا لا يطابق هواه ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ (المؤمنون: ٧١) فلمَّا بَلَوْنا من الناس هذه الشمائل، وأن كلَّ أحد يحب أن تجرى الأحكام على اختياره، رجـعنا إلى إيثار اختيارنا، إذ كان نظرنا لأنفسنا أرشد من نظر غيرنا «وما حَكَّ ظهرك مثل ظفرك!».

وكنا مع هذا نصـغى إلى قـول الناس بالأُذُن، لا بالعقـل، فنقيس عليـه ونختبر مراده، ولا نريه الخلاف، فنوحِشَه، غير أنى أوسع لهم صدرى ويَسَعُ جَهْلَهم حِلْمى، وأقـضى بعد ذلك ما أُريد، إذ لم أكُنْ على أمرٍ مـجبوراً ولا مقهوراً، إلا مـا قَهَرتْنى عليه السياسيـة، وما تحمد له العاقبـة، كمن يتجرع الدواء لُيبرء الدواء، ولم أكن أغتبن لأحـد فى الحق من جهالة ولا غفلة، إلا أن تكون مسامـحة وتغافلاً لأمر يُراد، أو مُـتباعة للقول فى حـينه تلطفًا وقلة خلاف على قائله، ثم أصرفـه تارات، فالجاهلُ عندنا من إذا أشار برأى، ثم رأى أنه صنع ضده، أن يعاود القول فيـه: فإن كان فَطِنًا، من العَيِّ التكرار، وإن كان لم يعلم، فالتذكير به غـفلة منه أو استنقاص لمخدومه، اللهم إنه لم يسمع منه الأولى، فتجرى عن الأخـرى، ولعل خلاف الرئيس عليه الأمر قد

(١) فى المطبوع: «نحير» بالراء المهملة، ولا وجه له. وحاد يَحِيدُ حَيْدًا: مال عنه وعَدَل.

ظهر له، وخفر عن القائل، ولم يرد اطلاعه عليه، فيكون في رأيه البركة والخير للفريقين، وهو يلوم على ما لا يعلم أصله ويتمادى جهالة، وينطق هذراً، وتنحرف نيته على غير معنى، فيكون ظالمًا لنفسه.

فأودعنا كَبَّابًا حِلمًا، وأمناه، وبقى في جملة الجند تحت إحسان وإحمال، غير أني لم أستعمله بعدها في معقل، ولا مكنته من صخرة، إذ «لا يُلدغ مُؤمِنٌ من جُحْر مرَّتَيْن[1]».

(١) الميداني: مجمع الأمثال ج ٢ ص ٢١٥.

الفصل السابع

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

٣- قدوم المرابطين إلى الأندلس
وموقعة الزلاقة[١] ومحاصرة حصن لييط:

٤٦- مقدمات تدخل المرابطين فى شئون الأندلس

وبَقِيَت أحـوالُنا على أفْضَلِ ما يمكـن، وبَلَغْنا من آمالنا غايتـها، إلى أن حَدَثَ أمْـرُ المُرابِطين - أعَزَّهم الله - وكُنَّا رأينا كَلَبَ النصـرانىِّ على الجزيرة وأخْذَه لطُلَيْطَلَة، وقلَّةَ رفـقه، بعد مـا كان يقنع منَّا بالجزْية وصـار يروم أخْذَ القواعِد، وأنَّ أخْذَه لطُلَيْطُلَة للضعف المتوالى علـيها عامًا بعد عامٍ، وكذلك كان من شـأنه فى أخذ البـلاد، إذ كان مَذْهَـبُه ألا يُنازِلَ مَعْـقلاً، ولا يُفْـسِدَ أجنادُه على مدينةٍ، لبُعدِ مَرَامِها ومَن فيـها من مخَالِفى مِلَّتِه، وإنما كان يأخذ منها الجِزْية عامًا بعد عام، ويعنف عليها بما شاء من أصناف التعدِّى، إلى أن تضعف وتلقى بيدها كما فَعَلَتْ.

فوقع مـن ذلك فى الأنْدَلُس رجَّةٌ عظيـمةٌ، وأشـرب أهلها خَوْفًـا وقَطَعَ رجاء من استيطانها، وجرَتْ بين المُعْتَمِدِ وألْفُونْش مُخالَفات كثيرةٌ، وساله أن يتخلَّى له مَـعاقِبَ كـان الموتُ عنده أوْلى من إعطائها، فـوجست نفـسُهُ منه بالجملة، ورَام كَسْرَه بطوائف المُرابِطين، وضَرْبَ بَعْضِهم بِبَعض للقَدَر الذى شاء الله:

> إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفَتَى
> فأكـثَرُ ما يَجْنِـى عليه اجتِـهَادُهُ

(١) بطحاء الزلاقة من غرب الأندلس.

وقد كان أخونا صاحبُ مالَقـة، للفتنة التى كانت بَيْننا وبينه، قد داخلَهم قَبْلُ يستغيثُ بهم، ويرجو الانتقام منَّا بهم، وأن يدْرِكُوهُ مـا فاتَهُ من مملكة جدِّه، وظنَّ أنَّه، عند ظهورهم، يقسم الأموال بينى وبينَه، وكان هذا الخلافُ كلُّه من سعادة أميـر المسلمين، ورأى من تَشَتُّتنا أنَّه لا مشـقَّة تكون عليه فى أخذ بَعْضِنا ببعض متى شاء، فلم يُجِبْهُ الأميرُ إلى شىء، ولا كان وَقْتَه، وهو يُلِحُّ عليه بقلة الدربة.

٤٧- إرسال سفارات أندلسية إلى مراكش،

احتلال المرابطين الجزيرة الخضراء[١]:

وقد كـان رُسُلُ المُـعتَـمِد قـبل هذا قد وردت عليـه، تُعلمه أن يتـأهَّبَ للجهاد، وتَعِدُه بإخلاَء الجزيرة الخضراء، وأنه لا يَصِلُ إلى سَبْتة إلا ويَضَعُها فى يديه، فلمَّا وصل متأهِّـبًا لذلك، بمن احتفل به من جيشه، قدَّم رُسُلَه إلى المُعْتَمِـد، منهم عبدُ الملك القاضى، وابنُ الأحْسَن، فَأمْسَكَهُم بإشـبيلية مُدَّةً طويلة، وأميرُ المـسلمين فى ذلك مُتَقَلِّقٌ لورودهم، فأرسل معـهم من شيوخ إشْبِـيلِية من يقول له: «تَرَبَّصْ من سـبتة مُدَّةً من ثـلاثين يومًا، إلى أن نُخلِى لك الجزيرة» فأجـابهم إلى هذا، وسألوه خطَّ يده وبالتربُّص، فأشْعـرَ الأميرُ بذلك، وقـيل له: «لم يَجْـعَلْك ابن عـبَّـاد فى هذا الالتـواء إلا لأنَّه يُريد أن يرسل إلى ألفُـونْش يُعلمه بقدومك، ولـعلَّه يتأتى له منه مـا يرغب، ويُهدِّده بك، ويسألهُ أن يُعـاقدَه على أن يهبـه الجزية أعوامًـا، فإن فعل، استـجاش

(١) الجزيرة الخـضراء بالأندلس، بينها وبـين مدينة قلشانة ٦٤ مـيلا، وهى على ربوة مشـرفة على البحـر سورها متـصل به، وبشرقيـها خندق، وقصـبة المدينة مـوفية على الخندق وهى منيـعة حصينة سورها حجارة (صفة جزيرة الأندلس).

عسكره على الجزيرة، ومنعك الجواز، فاسْبِقْهُ إليها! وإن كان النصرانىُّ لا يتأتَّى له، أرْسَلَ إليك فى الجواز!».

ولمَّا انفصل الرسلُ عنه بنيَّة التربص فى إخلاء الجزيرة ثلاثين يومًا، جهَّز عسكرًا مُقَدِّمًا من نحو خمسمائة فارس، وأرسلهم فى أثرهم، فلم تَصِل الرُّسُلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلاَّ والعسكر فى أثرهم قد عدَوْا ونزلوا بدار الصِّناعة، فالتفت القومُ إلى خَيْل قد ضربَتْ مَحَلَّتها، لم يُدْرَ متى أقبلت، ولم يُصْبَحْ لهم إلا وطائفة أخرى بعدها، يزيدون ويترادفون، حتى انكمل العسكر كله على الجزيرة مع داود بن عائشة، وأحدقوا حواليها يحرسونها، ونادى داود بالراضى، وقال له «وعدتمونا بالجزيرة! ونحن نأت لأخذ بلدة ولا ضَرَرٍ بسلطان إنما أتينا للجهاد! فإمَّا أن تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا، وإلا، فالذى تقدر عليه، فاصْنَعْ».

وخاطبَ أميرُ المسلمين ابن عبَّاد، يُعلمه بما صنع، ويقول له: «كفَيناك مؤنةَ القطائع وإرسالَ الأقوات لأجنادنا كما وَعدْتَ!» فأرسل المُعْتَمِدُ لابنه الراضى فى إخلائها لهم، وحصل فيها داود، وأتى الأميرُ إليها، ودخلها ناظرًا إليها، ثمَّ انصرف إلى سَبْتة إلى وقت إقباله، وأمر داودَ بالتقدُّم إلى إشبِيلِيَة، فاستوفت العساكر على إشبِيلِيَّة.

وقد كان رُسُلُنا مضوا مع رُسُلُ المُعْتَمِد إلى أمير المسلمين، على اتِّفاق ضمَّ بَعْضُنا فيه بَعْضًا إلى حقيقة، وعاقَدْنا أمير المسلمين على أن تتَّصل الأيدى على غَزْوِ الرُّوم بمعونته، وألاَّ يعرض لأحَدنا فى بلده، ولا يقبل عليه رعيَّته بمن يروم الفساد عليه.

٤٨- تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد:

وأرسل [أمير المسلمين] عند حُلُوله بإشبيلية، عن جميع الرؤساء، فأمَّا ابنُ صُمَادِح، فأبى عليه [وبقى] مُتَرَبِّصًا ليَرَى كيفيَّةَ الأمْر ومَخْرجَه مع الرُّوم، واعتذر بكبر السنِّ مع الضعف، وأرسل ابنَه مُعْتَذرًا، وبادَرْنا نَحْنُ إلى الخروج، وسرِرْنَا بذلك، وأعْدَدْنا ما استَطَعْنا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا، وقدَّمنا الهَدِيَّة إلى أمير المسلمين، وأمرنا بضرب الطَّبْل وما يُسْتَعَدُّ به للفرح، عند مُخاطبته لنا بدخول الجزيرة، وظننا أن إقباله إلى الأندلس مِنَّة من الله عظُمَتْ لدينا، لا سِيَّما خاصَّة من أجل القرابة، وللذى شاع من خيرهم، وإقبالهم على طَلَب الآخرة، وحُكمهم بالحق، فنعمل أنفسنا وأموالنا فى الجهاد معه كلَّ عام: فمن عاش مِنَّا كان عزيزًا، تحت ستر وحماية، ومن مات كان شهيدًا، والعجبُ فى تلك السفرة من حُسن النيات، وإخلاص الضمائر، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك.

ولقينا أمير المسلمين فى طريقه إلى بَطَلْيَوْس بجَرِيشَة، ورأينا من إكرامه لنا وتحفِّيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة، لو استطعنا أن نمنحه لحومَنا، فَضْلاً على أموالنا، ولقَينا المتوكل ابن الأفطس محتفلاً بعسكره: كلٌّ يرغب فى الجهاد، قد أعمل جَهْدَه، ووطَّن على الموت نفسه.

٤٩- موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس:

وتَلَوَّمْنا ببَطَلْيَوْس أيامًا، حتَّى صحَّ عندنا إقبال ألفونش فى حفلة، يروم المُلاقاة، ويظنُّ أنه يهزم الجيش لقلَّة معرفته به قبل، وساقَهُ القَدَر إلى أن توغل فى بلاد المسلمين، وأبعد عن أنظاره، ونحن بإزاء المدينة، مترَبِّصون:

إن كانت لنا، فبها ونِعْمَتْ، وإن لم تكُن، كانت وراءنا حرزًا ومعقلاً نأوى إليها، وأمير المسلمين يُدبِّر هذا الأمر بحسن رأيه، ويلتوى، عسى [أن] تقع المُلاقاة بتلك الناحية، دون أن يحوج إلى التوغُّل فى بلادهم، وهم، كما دخلوا الأندلُس، ولا يعرفون مَنْ لَهمْ أو عليهم ورَجَا بأن يكون الرُّومىُّ لا يَخْرُجُ إليه أحدٌ، فيَنْصَرِفَ طريقه، ويكفى الله المؤمنين القتال، إلى أن تُريه الأمور وجوهها، فلا يسمع إلا الأمير متربصًا لالتياث طاف به، ولولا ذلك، لكان فى أرض النصارى مُدَوِّخًا لها، والنصرانىُّ فى هذا كلِّه يقرب متعاطِيًا، لا يعمل حساب مَنْ يُغْلَب، إن كانت عليه أن يكون بعيدًا من أنظاره، فيستأصله السيفُ، ولو لم يكن إلا يأكله الطريق وبُعْدُ المسافة.

ثم أرسل، على يدى ابن الأفطس، إلى أمير المسلمين، يقول له: «ها أنا قد أقبلت أريد ملاقاتك، وأنت تتربص وتختبئ لأصل المدينة!» فلم يكن بُدٌّ أن يُنتقل إليه، ليكون الجيش على مقربة منه، وتواعدا اللقاء فى يوم سميَّاه، ولم يكن بين المَحلَّتين إلا نحو ثلاثة أميال، فاستاغ المسلمون إلى ذلك الوعد، وحلَّ الناس عن أنفُسهم، وكانت خيرة أن لو ركبت الفئتان، لم تنفصل إلا عن فَقْدِ الأكثر من عسكر المسلمين، حسبما توجبُه الموافقَة للقتال.

ففجأهم عسكر الرومىِّ، وهم على غير إعداد، وكان مختلسًا: إنَّما له ما ألفَى فى تلك الساعة، وألقَى سُمَّهُ فى الرَّحْل، ومات منهم خلائق ممَّن لم يكن يقدر على نفسه، فلم تَقَع الصيحة على الجيش [إلاَّ] وركبوا فى طَلَبهم، وهمُ قد كلُّوا وثَقَّلَهم السِّلاح مع بُعْد المسافة، فاقتفى المسلمون

آثارهم، وركبوهم السيْف، ومات من جيشهم خلائق، وتَبَدَّدوا فى الطريق، فمن بَيْن قتيل ومَيْتٍ مُثَقَّلٍ ضريع، ولو أن تلك الوقيعة تكون على إعداد من وقوف الفِئَتين ومناطحتهما فى اللقاء، لفُقِدَ من العَسْكَرَيْن الأكثر، كالذى توجبه الرتبة، لكنَّ الله لطيف بعباده، ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل، وانصرف أمير المسلمين راجعًا إلى إشبيلية على حال سلامة ونصر.

٥٠- يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة ،

بدء الخلاف بين المتحالفين

ولما انقَضَتْ غَزْوَتُهُ تلك، جَمَعنا فى مجلسهِ، أعنى رؤساء الأندلُس، وأَمَرنا بالاتِّفاق والائتلاف، وأن تكون الكلمة واحدة، وأنَّ النصارى لم تفتَرِصْنا إلا للذى كان من تشتتنا واستعانة البعض بهم على البعض فأجابه الكلُّ أنَّ وصيته مقبولة وأن ظهوره مما يجمع الكلَّ على الطاعة والجَرْىِ إلى الحقيقة.

وانتدب إليه ذلك الوقتَ أخونا صاحِبُ مالَقة، وقال من غير رويَّة: «إن أحوالى قد ضاقت بتعدِّى أخى على بلادى وميراث جَدِّى!» يُشير بذلك أن يأخُذَ له الأمير بحقِّه منَّا، فلما قضى كلامه، قال له أمير المسلمين: «هَلْ لَقَيْتَ أخاك فى هذا المعنى، وتراميتَ عليه قبل مُخاطَبتك لى؟» فلمّا قال له: «لا» رد عليه: «ما ينبغى لنا ذلك إلا برضاه!» ولم يمكنَّا فى ذلك الحين السكوت لِمَا يلزم من شُكْر الأمير، و [كانت] فرْصَةً لتِبْيَان الحجة وإقامة عذرِنا ألا يتنسبَ إلينا بَعْدُ نَسَبُهُ، فقلتُ له: «إنَّ أمير المسلمين لم تكن غايتُه إلا ما هو بسَبِيله من الجهاد، وهو لا يرضى أن ينقض ما أحْكَمَه آباؤنا من

قسمة ما قسموه من بلادهم بين أبنائهم، وليس منَّا أحدٌ حَصَلَ على شيء بقُدْرَته، إلا بما تهيأ له عند الله والآباء من بعده، مع إجماع المسلمين على الرِّضى بمن تخيَّرُوه، وقد كان الشيخ جدُّنا - رحمه الله - رتَّب ذلك، ورأى أنَّ مالَقَةَ لا غنًى بها من غَرْناطة، فجعل أمْرَها مصروفًا إلينا من بعده، كالذى كانت فى حياته، فأنقضتَ من الأمر ما أبرم، وقَطَعْتَنا، وأردتَ الاستبداد على غير حقيقة ولا أصل، ولو رأى جدك فى ذلك صلاحًا، لأعدَّ لك لذلك عُدَّةً تغنيك عنَّا! ولمَّا تعدَّيْتَ المرَّةَ بعد المرَّة، سَعَيْنا فى صرف بعض الحال إلى ما رتبها عليه الجدُّ، ولم نبلغ فى ذلك الغاية التى تجِبُ بانحياشك ونفارك، وهذا ما وقع! فإن شاء أميرُ المسلمين أن يبتنى من جديد، وينقض ما رتَّب الشيخ، فهو لنا بمنزلَتِه: أَمْرُهُ نافذٌ! وإن رأى ما فُعِلَ من ذلك سدادًا وصلاحًا، فلأىٍّ وجه نكلفه ما لا يليق له؟» فلمَّا تكلَّمتُ بهذا، وَقَعَتْ مُساكَتَةٌ، وأمر الأميرُ بانصرافنا، ولم يُعِدْ فى ذلك بَعْدَها مَجْلِسًا إلاَّ فى سَفرة لِيِيِّط الملعونة.

وأخذ أمير المسلمين فى الانصراف إلى بلاده، وهو قد اطَّلع عيانًا وسماعًا من اختلاف كلِمَتِنا ما لم يَرَ وَجْهًا لبَقائنا فى الجزيرة، وأنَّسَ الجميعَ، ولم يتربَّص فى البلاد ألا يُوحِشَ سَلاطِينَها ممَّا يتوقَّعونه من انحياش رعيَّتهم إليه، فكُلٌّ من شكا إليه ذلك الوقتَ من رعيَّةٍ، يقول له: «لم نأت لهذا! والسلاطينُ أعلَمُ بما يصنعون فى بلادهم!» حتى ازداد بذلك مَحَبَّةً إلى ما كان عليه فى قلوبنا، وإليه استنامة ومَيْلاً، ورجع الكلُّ إلى وَطَنه.

٥١- عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس:

حصار حصن لييط

وبقيت الحال على ذلك: قد أشرب الرُّومُ من تلك الوقيعة خَوْفًا وانكماشًا، ولم تزَل الحالُ صالحةً إلى سُفْرة لِيِّط.

وإنَّ المُعْتَمِد بن عبَّاد، لِمَا رأى من خِلاف ابن رَشيق عليه، وأنَّه أراد أن يَضعَ ابنَه الراضِيَ بمُرْسِيَةَ عِوَضًا عن الجزيرة، صار بنفسه إلى أمير المسلمين، وجاز إليه البحر، يريه الطمأنينة، ويحكم معه ما شاء من عَمل في مُرْسِيَة وغيرها، وعَظَّمَ له شأنَ لِيِّط، وأنه في قَلْب البَلَد، وأن لا راحة للمسلمين إلا بفقْده، وعاقَدَهُ على أن يأتي عليه بنفسه ورجاله، لِكَيْ يَتَهيَّأ سَلاَطِينُ الأنْدَلُس حَرْبه بعُدَدِهم وإجماعهم، فيأمنوا مَنْ يُقْلِعُهم عنه.

وأتَتْنا كُتُبُ الأمير، يأمُرنا عند جوازه، بالاستعداد للقتال وما شاكَلَ ذلك، فَفَعَلْنا، وبادَرْنا، رغبةً في الجهاد، ومَحَبَّةً فيه، وإيثارًا له، وخَرَجْنا إليه، ولقيناهُ في حَيِّزٍ من بَلَدنا، بما يُطابِقُ مِثْلَه من الهدايا والتُّحَف، وأجْمَعنا على المسير إلى لِيِّط.

فنازَلْناه على أتمِّ ما يمكن من الرجال والعُدَد، كلُّ رئيس يقاتِلُهُ على حسب مَجْهوده، وما تبلغ استطاعتُه وحيلتُه، وهو قد امتلأ برعيَّة الجِهَة، كلُّها من النصارى، وأعدُّوا فيه ما يحتاج من كلِّ شيء، فِعْلَ من نَظَرَ على سَعَةٍ، وهُمْ في ذلك يهدِّدون بمجيء ألفونش، ويريعون الحيلة بالتنيير كلَّ ليلة، والقتالُ عليهم كلَّ يوم لا يفتر، مع البُنْيان في المواضِع المهمة عليهم،

ونَصْبِ المجانيق والعَـرَّادات، حتَّى لم يَبْقَ عَملٌ يُرامُ به افتِـراضُ المَعَاقِلِ إلا وصُنِعَ وأتَى ابن صُمَـادِح بفيلٍ أقامَـهُ، وخرق به العادة: أصـابَهُ من الحِصْنِ قَبَسُ نارٍ، فأحْـرَقَهُ، وفى كلٍّ ذلك لا ينجح عَمَلٌ، ولا تظهر فيـه للمسلمين فُرْصَةٌ، لِمَا شاء الله من اختلاف الكلمة.

٥٢- محاصرة لييط تصور فوضى ملوك الطوائف فى ذلك الحين:

وكانت تلك سفرةً أخرج الله فيها أضْغَانَ سَلاَطينِ الأندلس، ورعيتهم فى ذلك يأتون أفـواجًا، شـاكين لِمَـا وَجَدوا لمـن أسندوا إليه: فـالراضى منهم يلتمس الـزيادة، والساخِطُ يرجو الانتـقام، وجـعلوا فى شكاوِيهِم فقـهاءهم وسَائِطَ، يقصـدون نحوهم: منهم الفقيـه ابن القُلَيْعىِّ، قد صار خِـباؤهُ بتلك المَحَلَّة مَغْنطيسًا لكلِّ صادِرٍ ووارِدٍ، يَجِدُ بهم السبيلَ إلى الطَّلَب، للقدَر الذى قدرَّه الله.

ورأى سَـلاطينُ الأنْدَلُس عند ذلك من تحـامُق رعاياهـم وامتناعـهم من مَغارِم الإقطاع التى كانت عليهم، مع احتياجهم إلى الإنفاق، ما قلق به وساء الظنُّ من أجله: جيش يكلِّفـونه كل عام، ومُجـامَلاتٌ تلزم المُرابِطين كثـيرة وتُحَفٌ مُتَوالية، لو فرط منها فى شىءٍ، لانخرمَت عليهم الأحوال، ثم رعايا تمتنع من تأديَة ما تقوم به الحالُ الموصوفة، فلا حيلة إلا بين صبر يؤدى إلى ملامةٍ توجب عقوبة، أو امتناع يؤدى إلى استِئصالٍ، كالذى جرَى.

ونسمع فى هذا كـلِّه من أهل جهاتِنا تَهـدُّدًا وعصيـانًا انكرناه، لا تتمُّ به مَملكةٌ، ولا يتـهيَّأ معـه قضاء حاجـة، ولقد كان القُلَيْعِىُّ المـذكور فى تلك المَحَلَّة يخاطِب إخوانَه بحَضْرَتنا ألا يعطونا شيئًا، ويَعِدُهم بما كان، فلمَّا كان

يأتيهم الحفزُ منَّا، يقعُدون بنا، ونَحنُ أحْوَجُ ما كُنَّا إليه للإنفاق، لا سيمًا فى تلك المحلَّة التـى عُدَّتنا فيهـا الأقواتُ إلا بالشراء كلَّ يـوم، فدخل علينا من ذلك ضَرَرٌ شنيعٌ.

وطالت تلك المَـحَلَّة الملعونة، فكأنَّمـا مثلَقٌ أبانَ الطيِّبَ من الخـبيث، وكشف الـعورات، فلم يَزْدَد الرؤســاء إلا تَوَحُّشًا، ولا الرعيَّـة إلا تسلُّطًا، ولا الداخِلون على مِثْل هذه النصبة إلا طمـعًا، وحُقَّ لهم، مع اختلاف كلمة الرؤساء، وهـم فى أسباب الـغرَق: فمن اغـترَّ منهـم طَالَب صاحِـبَه، وهو المَطْلوب، وشَغَلَه ذلك ممَّـا هو فى سبيله، ومن ميَّز، انفرد، لم يَجِـد مُعِينًا حتَّى توغَّل فى اللجَّـة وأخذته الحملة، وكـانت مقدمات سـوء، وزمانًا على السلاطين عسيرًا، وسعدًا للمرابطين مُقتبلاً.

٥٣- النزاع بين ابن عباد وبين ابن رشيق:

وأتى ابن رَشِيق عند ذلك مُـفْسِدًا بزعمه لِمَـا عقده ابن عبَّـاد مع الأمير، وبذل الأموال للمُرابطيـن، وسارَعَ إلى قضاء الحاجـات، واصطَنَع إلى الأمير سير ـ أعزَّه الله ـ وعوَّل عليه، فأكْرَمَه الإكرام الشنيع، وألقَى ابن عبَّاد يَدَه فى قَرُور، مُعَـوِّلاً عليه فى القضيَّـة، وبذل له أموالاً جسيمـة، والمُكثِر على كلِّ حال يغلبِ المُقِلَّ، وإن شفَّ عليه باليسير، وأُعْطِيَ ابنُ رَشِيق الأمان، وبُولِغَ له فى التـأنيس، حتـى غرَّه ذلك وانبـسط له، وتاهَ على ابن عـبَّاد، وأظهـر مَعْصِـيَتَه والانحياشَ منه، قائمًا فى ذلك بدعـوة الأمير ومُسْنِدًا إليـه، حتى أفضى ذلك به، إلى أن أمر أن تكون الخُطْبَة بمُرْسِيَه على اسْمِ أمير المسلمين دون ابن عبَّاد.

والمُعْـتَمِـد، فى هذا كلِّه، يَرَى من الأمر مـا يغيظه ويكربه ويتـقطَّع منه حسرات، وحُقَّ له، فلم يَنَمْ عن القضيَّة، وأحْكَمَها مع الفُقَهاء، واحتجَّ عليه بأحكام السُّنَّة، وكان ممَّن اصطنع على ذلك ابنُ القُلَيْـعِيّ، وهو يفخر بالأمر عندنا، ويقول: «سَـيرَى ابن رَشِيق مـا يحلُّ به! فقد شُـووِرْنا فى أمْره، وإن جُعِلَ لنا مَجلِسٌ لغيره، فَعَلْنا به مِثْل ذلك!» وكانت هذه الكلمة ممَّا أوْحَشَتْنا وغيَّرت أنفُسَنا عليه، مع تهدُّده تلك السفـرةَ، وضَرْبِه الأمثال، وحِدَّة مَعانيه، واستطالَتِه بلسـانه، وأميرُ المسلمين لا يشـعر بشىء من ذلك، ولا نقدر نَحنُ نشكو به بلا بيِّنة ولا إقامة بُرْهان: فتكون له الحُجَّةُ، ونَقَعَ نَحنُ فى الخزى، لا سيمًا بما كان يَنْتَحِلُ من [أهل] العِلْم.

وإنْ أمير المسلمين، لما رأى حـال ابن عبَّاد مع ابن رَشِيق، واختلافَ ما بينهما، أعمل فى ذلك عَقْلَه، ودبَّره برايه، وقـال: «ما تنبغى لنا مُفاسَدَةُ ابن عبَّاد من أجْل ابـن رَشِيق، لاحتياجِنا إليـه فيما نَحنُ بسـبيله، ونَحَنُ لم نأمن أمْرَ الرُّومىِّ، والأوْكَدُ علينا فى هذا الوقت مُداراةُ ابن عبَّاد، حتَّى تُرِينا الأمور وُجوهَها!» فتعسَّف على ابن رشيق فى الذى أظهر من الخِلاف على صاحبه، وقال له: «ما كان يَجبُ لك أن تُقَدِّمَ بدعوتى للقيام على رئيسك، فتوقِعَ بَيْنى وبَيْنه الشحـناءَ!» وقال فى نفسـه: لم يفعل ذلك ابنُ رشـيق إيثاراً ولا مَحَـبَّةً لجهتى! اكثر من اضطرامِ النار على صاحبِه وإشغاله بى عن نفسه، ولا سيمًا أنَّ مَعُـونته للروم بلِـيِّط لم تَخفَ على أحـد، يعتَـقِد أنَّ ببـقائها يثبُتُ فى مُرْسِيَة!» فكان أبدًا يميرُهم ويقوِّيهم بمـا يعجزون عنه، إبقاءً لرَمَقِهم، وخَوْفًا من الداخِلة عليه بفَقْدِهم.

وصحَّ ذلك عند الأمير، والمُعْتَمِدُ فى هذا كلِّه لا يَنَامُ عنه، ويَسْتَفْتى فيه الفُقَهاءَ، لنفاقه بعد دخوله فى البَيْعة له أولَ أخْذِه لمُرسِيَة، فاتَّفقَتْ عليه الأسباب، وصُنِعَ له مَجْلسٌ أفْتَوْا فيه بإزَاحَته عن المسلمين، وإسلامه لسُلْطانه، فاستغاث عند ذلك بالأمير، فأجابَهُ: «إنّه لو كان لك عندى حقٌّ، لوَهَبْتُهُ لك، غيرَ أنها أحكام السُّنَّة، لا أستطيعُ على إزاحتَها عن مَرَاتِبها!» وأمر بتَثقيفه وإسْلامِه إلى المُعْتَمِد، وقُيِّد فى الحديد، ورأى هوانًا عظيمًا، وأمَرَ المُعْتَمِد الراضى ابنَه أن ينزل فى مَحَلّته على المقام، وكأنَّه لم يكن بالأمس، وأرسَلَ الأمير إلى أهل مُرْسِيَة يأمرُهم بالرجوع إلى صاحبهم والطاعة له، فخالف كلُّ من فيها من ابنه وقَرابته، وثقَّفوا مدينتهم وجَفَوْا كلَّ من مضى إليهم، وامتنعت الحال فى ذلك، بعد وسائط كثيرةٍ تكرَّرت بينهم، فلم يقدر معهم على شىء.

٥٤- رفع الحصار عن لييط:

تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

وشاخَت المَحَلَّة، وطالَ مكثُها، وملَّ الناسُ إلى أن ورد الخبرُ بقُدوم ألفونش إليها، فساءَت الظنونُ من أجْل ذلك، ورأى أمير المسلمين أنَّ الرجوعَ عنها والانصراف أولَى، لطولِ مُكْثِ الناس وفشلِهم، مع جِمام القادِمِين من الرُّوم ومع خِلاف مُرْسِيَة، لئلا يسندوا إلى ميرها ومَرافقها إذ أنهم أرسلوا أنّهم ارسلوا عن الْفُونس وَقْتَ خِلافِهم، فأخَذَ فى الانصراف.

ووَقَعَتْ بَيْن المُعْتَمِد والمُعْتَصِم، صاحِب المريَّة، مُشاجَرات وتباعات

باردة فى معاقل من نَظَر الجَبل وفى أَمْرِ شُرُبةَ، ما وقع فيه الشكوَى إلى الأمير، وانفصلا على غير موافَقة: كلٌّ ذلك من المنحسة المَقْضِيَّة عليهما.

ومِثْلُ ذلك جرَى لنا مع أخِينا صاحبِ مالَقة، وجعل يُكَرِّرُ فى ذلك النَّظَر الذى تكلَّمَ فيه سَفْرَةَ بَطَلْيَوْس، وحَفَزَ فى ذلك بزَعمه، وقال لى بقلَّة دُرْبَتِه: «إنما مَنَع من ذلك السَّفْرةَ الأولى ذِكْرِى له عند انفصال الأمير، فلم يُدْرِكْ ولا أَدْرَكْنا! والآن، فلا بُدَّ من ذِكْرِه على سَعَةٍ، وإلاَّ، فالحقُّ بَيْنى وبينك!» فلم نُخفَّ لقوله، ولا كابَرْتُه، لعِلْمى أنَّ الأمير لا يحفل بشىء من هذا كلِّه، ولمَّا رأى أمير المسلمين كثرةَ طَلَبِه لنا، أرْسَلَ إلينا قَرُوراً، يقول لنا: «لا يَرِبْكَ شكوَى أخيك، فإنَّ السلطان لا يَسَعُهُ أن يقول له: «اسْكُتْ عن طَلَبِك!» ولا يعطيه عليك يداً، غَيْرَ أنَّنا نُلَوِّى القصةَّ مَرْحَلةً بعد مرْحلة، حتَّى يَقَعَ الانفصال» فشكرتُهُ فى ذلك، وقال: «إنَّ غرناطة عليه آكَدُ من مالَقَة لاحتِياجِهِ إلى الاجتياز عليها فى غَزَوَاته، وما أشبهَ ذلك من المرافِق، فتقدَّم أنت الآن، وأَعِدَّ جَهْدَك ما يجبُ من ضيافة السلطان إذا [كان] خطورُه عليك، وهو مارٌّ بك على غَرْنَاطة فى انصِرافه!» فسرَّنى ذلك، وتقَدَّمْتُ إلى وادى آش، وأَعْدَدتُ له ما كان جَديراً به.

الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلــف هــذا الكتـــاب

٤- سياسة عبد الله بعد عودته من لييط:

إجراءات دفاعية وسياسية

٥٥- تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لييط مسلك قرور:

ولمَّا وصلتُ وادى آش، وقد ظهر إلىَّ قبلُ فى لييِّط من جَفاء قرُور وتخويفه لى، وتهديدى على لسان الأمير، والأمير عند ذلك غافل، غير أنَّنى حَسِبْتُ ذلك من قِبَلِه لمَا رأيتُ من مكانته عنده، فأدركنى من ذلك رُعْبٌ شديدٌ، وعاينتُ مع هذا ما حلَّ بابن رَشيق، وسمِعْتُ وعيدَ القُلَيْعىِّ لى، وجفاءَه علىَّ، وإزالة رقبتى عنه، ما زادنى ذلك جَزعًا، لا سيَّما أنَّ الجزَعَ والسوداَء مُتَمكِّنة من نفسى، وأجِدُها فى طباعى، كدْتُ أن أموت غمًا، ولم أرَ قطُّ قبل ذلك ذُلا ولا كدرًا، فأنكرت الأمور كلَّها مع السلطان، على حَسَب ما كان يُكْرِمُنى سَفْرَةَ بَطَلْيَوْس، ورأيتُ ضدَّ ذلك كلِّه، وقَرُورٌ يناصِبُنى العداوة، ويرسل المشاوِرِين إلىَ هوانى، ويأمُرُنى فى حال تلك الحال بأوامر بارِدة، يُرِيدُ بها إذلالى، ويُظهر إلىَّ فيها التعنيف والتعسُّف.

فلمَّا دخل نَظَرِى، أرَاد إصلاحَ ما أفسد معى، فعَلِمْتُ أنَّ ذلك ليس لنيَّة صَلُحَتْ، بل لحاجةٍ عَرَضَتْ ودَفَعَتْ إلها ضَرُورَةٌ من قِبَل الاجتياز علىَّ، ولأجْل ذلك، قال لى على لسان الأمير فى خَبَر أخى ما قال، وتبيَّن لى أنه، لو كان ذلك من عند الأمير، لم يطلُبْ قَرُورٌ مِنِّى عليها رشوةً، فإنَّه مع ذلك لم يُخلِّنى من مُؤنَتِهَا، وعمل لى حُجَّةً فى دَفعِ ضَرَر أخى عنى، وأخَذَ مِنِّى عليها ألف دينار مُرابِطيَّةٍ، لم أتَجرَّأ قطُّ على ذِكْرِها مدَّةَ حياته، لئلا يطْلُبَنى

عند الأمير، ثُم لم تَنْفصِل ساعةٌ أن انصرَف، وطَلَبَ لربِيبه خمسمائة دينار، فأعطيتُها له، وكذلك كلَّ ما يَطْلُبُ بإمْرةٍ وتَهدُّد، مع قلَّة رَحَمته ورِفْقه، وخشونة لفظه، ثمَّ أعطيتُه فى غرناطة ألفَ دينار أُخرَى باسْمِ كسوة خيْله، وأمَّا الذى صار إليه فى سَفْرة بَطَلْيَوْس ومُدَّة كَوْنِه على لِيِّيط مع الرُّسُل، فأكْثَرُ من أن يُحصَى، وهو فى ذلك كُلِّه لا يزداد إلاَّ نفاراً واستكباراً، ومثل هذه الواسطة تُفْسِدُ على الرئيس كثيراً، وتُبغض إليه جماعةً.

[أرسل فىَّ] أميرُ المسلمين، وأنا بِمكْناسَة، فسألنى عمَّا صار إلى قرُور من قِبَلى، فرويَتُ الأمرَ بأحْزَم ما يمكن، وقلتُ فى نفسى: «إن أعلمتُه بذلك، وهو على حال التمكين عنده، فربَّما أخرجهُ كتابى عليه، وتقرَّعه به، ثمَّ استقرَّهُ على مَرْتَبتَه، فيكون حتفى على يديَه، ولو أنى نأمَن مكْره، لأعلَمْتُه بالحال، أوْ ربَّما يقَع الكتابُ إلى يد قَرُور من غير تعمُّد، والغَرَرَ لا يدخله إلا أهْوَج، وكثيرٌ من الحقِّ يجبُ ترْكُه [وفيه فائدةٌ] بصاحِبه، فلم يَسَعنى أن أقولَ فى جوابى للسلطان: إنَّه لم يَصِرْ إلىَّ [بغير رشوة] فيُكَذِّبنى، إذ كان يعلم بلا شكٍّ أنَّنا لم نُخلِه من ذلك... الدفع التى أعلمنى رُسُلى، وصَحَّ عندى أنَّ قُرُوراً... حيث يصدِّقُنى، ولا يقع قَرور عنده فى...[1]».

٥٦- بعض المؤامرات وتخاذل ابن القليعى

[أمَّا أخونا تَمِيمٌ، صاحِبُ مالَقة] فإنه أَرْسَلَ إلى القاضى ابن سَهْل خمسين مِثْقالاً، يستعطفه على القيام علينا بالحُجَّة مَعَهُ فردَّها إليه ابنُ سَهْل المذكور، وتَنَزَّهَ عن ذلك.

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

وقال لى ابنُ القُلَيْعِىّ: «هذا وقتُ اقتراضك لهذا الرجُل، بأن تكتُبَ إليه، وتَعِدَه بالقضاء عند انصرافك، وهو يسمح فى قصَّة أخيك، على أن تجعلنى معه فى أحكامه، فإذا ألْصَقْتَنى به، رأيتَ عجائبَ مِنْ تأتِّى الأُمور على مرغوبك عند المُرابِطين وفى بلادك، فإنَّك، لو شئتَ أن تأخُذَ من أحَدٍ دِرْهَمًا بغير الناموس، لَسَمُجَ عند الناس، وإذا أخذتَ ألْفًا على وَجْه الحقِّ، حلَّ لك أخْذُهُ، ولم يستَبْشِعْهُ أحَدٌ، ولا أجِدُ أحَدًا [ينفع لك] مثل هذا الرجل!» ولم يُبارِحْنى حتَّى دفعتُ إليه بخطٍّ يدى رُقْعَةً تتضمَّن له القضاءَ، وما يترتَّب له عليه من مُسانَهَةٍ ومُشاهَرةٍ، ورأيتُ إجابته إلى ذلك صلاحًا بى وخطأً بأخى، ولِمَا تُوجِبُه السياسية من مسايَرته ومُداراته على تلك الحال [وكنتُ أظُنُّ أنَّه] قد حرص على الأمر والنَّهْى، ولا أراه يَبْتَدِئُ إلاَّ بى، ما لم... وفى هذا فسادُ مُلْكى» وخَلْعى، ويقدِّر على ذلك...(١).

«... وبك واثقٌ غير أنَّك قد جَعَلْتَ لى بقولك هذا من الحرص على هذا المال ما أُريد أن تعلمنى مِمَّن يُقْبَض!» فإنِّى لا أكاد أن أُصَدِّقه، لاحتياجى إلى ما نَحْنُ بسبيله من النفقات، وإقامةِ هذا الجيش كلَّ عام.

فجعل يُسَمِّى لى أقوامًا لا يعشرهم فى الخير والفضل، وقدَّم ذِكْرَ صاحبِ الأحْبَاس ابنِ سَلْمُون، وتسبَّب إليه برسم الأحْبَاس، وغَيْرهم ممَّن لم يَنَلْ منهم إلاَّ الطاعة والنصيحة، فقلتُ فى نفسى: «الله أكبر! ما قصد هذا إلاَّ إلى هذه الحاشية لنا ولآبائنا، إلاَّ وهو يُريد إفرادنَا دونهم، ليتمكَّن بما شاءَ، ولا نَجِد صديقًا نستريح إليه، مع ما تبيَّن من إنْفاسِه، وحِدَّةِ مقاطِعِه، وأغراضِه القاتلة!».

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

والعَيْنُ تُبْصِرُ فى عَيْنَىْ مُحَدِّثِها
إن كانَ مِنْ حزْبِها أو مِنْ أعَاديها

وجعل يَطْلُب بنى السُّنَيْدى والكَتَبَة وغَيْرَهم ممَّن قد اصطَنَعناه [ونأمَن] إمانته، ثمَّ قال لى: «كلُّ ما رأيتَ من السلطان فى لِبِّيط... كان متفلتًا أن يجعل لك مَجْلِسًا ولغَيْرك تستـ... وأنت على سَعَةٍ، وأفعل شيئًا تبطل به حجّتُهُ [عليك] ...[1].

... كُتم عليها من التَّرَقُّب والإنذار بالعيال نفثة حاقد» وكان هذا القُلَيْعىُّ مخمولاً فى أيَّام الشيخ جدِّنا ـ رحمه الله ـ، وكان لا يدَعَه فى المدينة، ويأمره بسكْنَى ضَيْعَتِه، لما كان يَرَى من شرِّه وقدرته على الدواخل، فلما ظهر أمر المُرابِطين، اصطنع إلى مُؤَمَّل وغيْرِه، ووُسِمَ لى بسِمَة الخير والقدرة على الكلام، وأنَّه لا أحَدٌ يقدر على استمالة المُرابطين على ما هو عليه، فوجَّهتُه رسولاً، وهو فى ذلك يعمل لنفسه، ويسعى فى هلاكى فى الباطن، وينفث بذلك، على ما صحَّ عندى، ويقول: «والله! لأبْلِغَنَّ حَفيدَ باديس الطينةَ السوداءَ، ولأُشَوِّقه إلى دِرْهَمٍ ينفقه [وذلك] على صنيع جدِّه بى وبغيرى!».

وأخْبَرَنى أبو بكر بن مُسكَّن أنه [كان كتب] إلى أمير المسلمين فى أوَّل سفَرِه معه، ولقى فى الطريق خبَر دخوله [الأندلُس] وقال: «هذا على رَغْم أنوف الفسَقة سلاطين الأندلس!» فقال أبو بكر بن مُسكَّن: «وتُخَلِّطُ معهم سُلْطَانَك؟» فقال: «نعَم! وهو المُقَدَّم إن شاء الله!... مات لتَنَفُّذ الأقدار!»

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

فلما أذن الله بانصرافه... تكلَّم ابن سَهْل إلى الأمير وقال له: «أنْتَ على...[١]».

«... نحن بحال لا يرضى عنا فيه لا رعيَّةٌ ولا جندٌ، وفى هذا الفسادُ والقَطعُ، فقال لى القُلَيْعىُّ: «إن تُعِنْ عليك الجُندَ، استَنْجَدْتَ من العدوة من يغنيك عنهم، وَدَعْنى ورأيى بعد إشراكى مع ابن سَهْل، ولا عليك من حيث يقوم لك المال!».

فرأيتُ أمْراً مُعَمّى ومستأثراً به دونى، مع ما كان ينطق به لسانُه أبداً من الوعيد، والتَّهْديد عند أصْدقائه ومَنْ ينقل ذلك إلىَّ عنه أنَّه يقول: «والله لا أُبلِغَنَّ من حَفيد باديس ما كان يبلغ جدُّه مِنّى ومن غيرى!» يسرح بذلك لقلَّة تحفُّظه وإرساله لسانه، ولاحتِقارِه لنا واحتياجنا إليه، فزاد ذلك الجُنْدَ قَلَقًا، وهمُّوا بالانتقال مُجتَمعين على ذلك.

فلمّا بصرتُ هذه الحالة، قلتُ فى نفسى: «أنا بسبيل، إن استَفْسَدتُ إلى الجُنْد، وهم جَناحَاىَ، أن بقيتُ وحدى مع [من] يَرُومُ خَلْعى، فالأوْلَى على كلِّ حال اطِّباؤُهم، واستِصْلاحُ ما فسد من أنفُسهم، وإسْخاطُ القُلَيْعى وحْدَهُ واجِبٌ فى رَضى عامَّة عبيدى وأجنادى» فجمَعتُهم بمحضره، وأعْلَمتُهم أنّى راجعٌ عن ذلك المذهب، ورادٌّ عليهم إنْزالاتهم، فقام الكلُّ على القُلَيْعىّ، وهمُّوا باختطافِهِ من بَيْن يدىَّ لولا إمساكى لهم، وخشيتُ مع هذا عليه أن يقتلوه، فتكون شهرة وعقوقًا وينجر الأمر إلى غير المحمود، فَقُلْتُ لهم: «أنا أكفيكم أمرَه!» وأمَرتُ بثقافه على أجمل الوجوه فى بَيْتٍ بقرب من القصر،

---

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

وكان تحت بِرٍّ وإكرام، وأنا فى ذلك أعتَذِرُ إليه من قيام العامَّة، وأعِدُهُ بالانطلاق عند إطفاء النائرة، كالذى صَنَعْتُ.

فلمّا توطَّدت الأحوال وقرَّت قرارَها، أمَرْتُ بإخراجه، وأنهَيْتُ إليه أن يكفَّ لسانَه، ويَدَعَ فُضولَ القَوْل والعَمَل إلاَّ فيما يَعْنِيه ويُشاكِل طريقته، فقال لى: «نَعَم! أنا ألتَزِمِ الرَّوابِطَ، وأسلُكُ سبيلَ العافية إن شاء الله!» فلم يكُن إلاَّ أن انطلق، وطار إلى أمير المسلمين بالشكوى، وزادَ فى الطين بَلَّة، فقال لى الجُنْد: «لو أنك أمسكتَه، لم يُهَيِّجْ عليك النار! وستَنْدُمُ عاقِبَةَ انْطِلاقِهِ!».

٥٧- سيرة الجند مع الأمير فى ذلك الحين تشييد الحصون:

وأرانى جميعُ الجُنْد من التأتّى والانقياد والمُناصَحة ما حسبتُ أنَّهم يُقاتلون عنّى الدَّجَّال، فسررتُ بهذه الحالة، واطمأنَنْت إليها، وقلتُ: «هؤُلاء أُمَّةٌ لا يَرَوْن بى بديلاً لإنصافى لهم ورَغْدِ عَيْشهم معى، وهُمْ قد رأوا جُنْدَ العِدْوة، وأنَّ أقلَّ عَبْدٍ لهم أغْنَى من غيرهم، وأصلَحُ حالةً، فلا يمكن استبدال الأدنَى بالأفضَل!» ثُمَّ عَلِمْتُ قياسَ المَغارِبة أهلِ الحصون، وعَلِمتُ ما هم فيه من الخير، ولم نَظُنَّ قطٌّ أنَّ أحَدَهم يبيع أيَّامى، وإنَّما وَجَسَتْ نفسى من الرعيَّة لطمعهم فى حطِّ المَغَارِم، وللذى شاع من الزكاة والعُشُر عند المُرابطين، فقلتُ: «إنَّ بهذه العِقْبان التى على رءوسها، لا تجترئ على شيء! وإذا تشقَّقَت المَعاقِل، كان أمْرُ الرعيَّة يسيراً، وكَمْ عَسَى يستطيع الجَيْشُ القادِمُ على أن يَعُمَّ جميعَ البلاد؟ ومُحاولةُ مَعْقَلٍ واحِدٍ منها تطول، وتَحْدث فى خلافه أحْوالٌ».

فصرفتُ وَجْهِ اهتِبالى إلى تشييد الحصون وبُنيانِها، وإعداد ما يُصْلِحها

لإحْصـارٍ إن كان، فلم أَدَعْ وَجْـهًا من وجـوهِ الحزم إلا وفـعلتُهُ: من إقـامة الأجبـاب، وإعداد المَطاحِن، وأنواعِ العُـدَد من التِّراس والنَّبـل والرَّعادات، وجميع الأقـوات، وقَلَعتُها من القُرَى، وأَعْـدَدتُ لكلِّ حِصْن قُوتَهُ لأزْيَدَ من العام، وفـعلتُ أكثرَ من ذلك في المدينة حَـضْرَتي، ما أَسْتَـغْنِي عن تحديده لاشتهارِه.

وقلتُ: «ليس من المُمْكنِ أن يتعرَّض أميـرُ المسلمين أحَدًا من سلاطين الأندلُس إلاَّ بعـد إبرامـه لأمرِ الـرُّومىِّ! ولا بُدَّ عند مُناظَرَتهم من فَـرَجٍ: إن غلب المُرابِطُ، لم يَفُتْنا الدخولُ في طاعته، ولا أسْدَيْنا إليه ما تُذَمُّ عاقبَتُه أكثر من الاحـتيـاط على بلادنا والمُداراة عـليهـا «فَلاَ الحـمارُ سَـقَط، ولا الزِّقُّ انْخَرَق!» نَحْنُ مُدْرِكُون: لا يَنْبَغِي تقديم يَدٍ سيِّئَةٍ إليهم، وإن غلب الرومىُّ، كنَّا منه على حَـذَر، وقد نفعنا مـا أبْرَمْناهُ من هذا البُنيان والتـشيـيـد، واتِّخاذ العُدَد، فَـسَيَكون بذلك لـلمسلمـين حِمايةٌ وانـجرارٌ إلى غَدٍ، إذ البُنـيان من المُرابِط لا ينفع!».

ولذلك أعْدَدْنا المُنَـكَّبَ: إن تَغَلَّبَ الرُّومىُّ، فأكون على البـحر متَّـصِلاً بالمسلمـين، نُدافِع منها جُهْـدَنا، إلى أن نُضْطَرَّ إلى الجواز وطَلَب السـلامة بحُشاشة أنفُسِنا ونُتَفٍ من أموالِنا، فشيَّدتُها لذلك، كالذى شهر عنَّا.

والجاهِلُ لا يدرى ما أوَّلُ هـذا ولا آخره، إلاَّ ويخبط [خَـبْط] عَشْـواء: فكلٌّ يتكلَّم على شـهوته، ولم نَعْـتَقـدْ في أمر المُـرابِطين ـ يعلم الله ذلك ـ صَدَّهم عن جهادٍ، ولا تَظافُرًا مع أحَدٍ عليهم، ولا أرَدتُ بهم شيئًا من مساءَة نُسِبَتْ إلينـا، أكثَر من أنى جَـزِعْتُ الجزع الشديد مـمّا تقـدم ذِكْرُهُ من تلك

المعانى التى أبْصَرْتُهـا، وما جرى على ابن رَشِيق، مع هَلَعِى لذلك، وتمكُّن السوداءِ مِنِّى، وسوء الظنِّ مع معايَنة اليقـين، فقلت: «ما دام تَتَلَقَّى الفِتَان، نخشى حـملة السيل على هذه المـدينة: فَتحْـصِينُهـا أوْلَى، ولن يُضِرَّ ذلك» فمتى دعانى أمـير المسلمين إلى إعْطاءِ عسكرٍ أو مال، أو ما أشـبه ذلك مما يَجِبُ من مُـشارَكَتِـهِ وإنجادِهِ، لم نتـأخَّرْ عنه، فـتقيـمَ على نفسى الحُـجَّة، وتجلب إلىَّ المَضَرَّة إن فعلتُ غَيْره، غَـيْر أنِّى، متى دعانى إلى الخروج إليه بنفسى، نَعتذِر وندافع ذلك جهدى فعسى [أن] يتركنى ويقبل عذرى، ومتى لم يقبل لى عذراً، نعلم أنه يُريد إخراجَ أمرى إلى حدود الفعل، فهو إذاً علىَّ متـعَسِّفٌ لكلام الأعـداء والكذب، فلا بُدَّ لى عنـد ذلك من الاحتيـاط على مُهْجَتى والـتحصين على نفسى، ونجعله إذ ذاك كـسائر مَنْ يُرِيدُ إخراجى من السلاطين، ولِى مَعَهُ الله، إذ[١] لم أنوِ به سوءاً، ولا واسَيْتُ عليه أحَدًا، ولا صَدَدْتُه عن جِـهاده، فبأىِّ شىء يتَـسَبَّب إلىَّ إلاَّ إن شاء التـذنيب مع القدرة؟ فلا طاقـة لى بذلك، كالذى صَنَعَ إنسانٌ دَخَلَ على بعض الملوك، وقـد أعَدَّ لكلامه جوابًا، فلمَّـا خُرِجَ إلى الثقاف، سُئِلَ عن إعداده الجـواب وزَعْمِه أنَّ ذلك نافِعٌ له، فقال: «لكل كلمةٍ وجـدتُ جوابًا إلا لقوْلِه: «خُذُوه!» فلم أدرِ ما أقول فيها، فوكَّلْتُ الأمر إلى الأقدار!».

وكُنْتُ، أيَّامى تلك، بيْن الرجـاء والخَوْف، إلاَّ أنِّى واثِقٌ بكلٍّ مـن معى من رجالى وخَدَمَتى أنهم لا يغدرونى، فـقَوِيَتْ نفسى لذلك بَعْضَ القوَّة، مع ما كُنْتُ أعدَدْتُه.

---

(١) فى المطبوع: «إذا».

٥٨- معاقدة عبدالله مع ألبرهانش وكيل ألفونش السادس:

ولما حان انصرافُنا من لِيِيط، كلَّمنا أمير المسلمين فى عَسْكرٍ يَتْرُكه عندنا بالأنْدلُس، خَوفًا من الرُّومىّ أن يكْلبَ عليها، ويَطْلُبنا بثأر تلك السفرة وغيرها، فلا يكون عندنا بمن نُدافعُ، فقال: أَصْلِحُوا نيَّاتكم، تُكْفَوا عَدُوَّكم!» ولم يعطِنا عسكرًا، فأيْقنَّا أن الرُّومىَّ لا يَدَعُنا على هذه الفُرْصة دون طَلَبٍ، كالذى كان، فلم يلبث أن احتفل وأتى طالبًا للمال، مُتَجنِّيًا على من خالفَهَ أن يُفسد بلادَه، وعاقَدَ صاحِبَ سَرَقُسْطة ومن يَلِيهِ من الشَّرْق، فدافَعوا شرَّه ودفعوا إليه ما سلف له عندهم.

ويلغنى الخَبر، وزاد ذلك فى غمِّى، وعَلِمتُ أنِّى فيه كَراكِبِ الأسَد: إن أسْلَمتُ البَلَد، ولا عَسْكَرَ عندى، هُتِكَ، ولم ينجبر لى فيه دِرْهَمٌ، ولم أُغْدَرْ[1] مع هذا، ولا يقرُّ المُطالبُ بأن يقول عنِّى: إنِّى ضيَّعتُه أو سُقْتُ إليه العدوَّ، كالذى رأيتُ وسمعتُ قَبْلُ عن ابن رَشيق ـ وخسارةُ بَلَدى زائدةٌ ـ ولا نقيم أَودًا بذلك لكلِّ ما نُحاوِلُه من الغزو كلَّ عام وضيافات المُرابِطين، فتجتمع علىَّ الخسارة من وَجْهَيْن، وإن واسيتُ القَوْمَ وأصْلَحْتُ على نفسى، قِيلَ: «قد عاقَدَ الرُّومىَّ!» ويُشَنَّعُ علىَّ ما لم أفْعَلْ، كالذى كان، فلم أَنْجُ ممَّا توَقَّعتُ للقَدَرِ المُفْضِى.

وكان ألبَرْهَانِش زَعِيمَ جهَات غَرْنَاطَة والمَرِيَّة، وكان الفُونْش قد وكَّلَه أمْرَ الجهتين، من إنفاذِ أمره فيها لفسادٍ على مَنْ تعذر له عندَه شىءٌ، ولقبض مال وتَوَسُّط ما ينفعه فيها، فأرسل إلىّ أولاً عن نفسه، ينذر بدخول وادى آش، وأنه لا يرده عن ذلك إلا الفداءُ لها، فقلت فى نفسى: «ومع من أتق رأيه؟

(١) فى المطبوع: «اغذَر».

أى مقدرة بنا على مـدافعته؟ لا عَـسْكرٌ ترك لنا ندافع به! فكمْ يأخذ فى هذه النَّصْبة من أُسْرَى المسلمين! وكَمْ يفسد فيها من الأموال! ما لا يعشر قيمة ما يُعْطَى كالـذى عَهَدْناهُ منهم! اللهـم لو كان، ونفَّذ ذلك، ويبلـغنا عن أُسْرَى المسلمين عندهم! أليس من الصلاح إفداؤهم بما عزَّ، فنحنُ جُدَراء أن نفعل ذلك قبل رِحلَتهم دون فساد فى البلـد! ونحتسب ذلك لله تعالى، وهو العالمُ بالضمـائر! فإنَّا لو فَعَلْنا ذلـك أشراً وبطراً، وعندنا مَنْ[1] ندافع، لكان فـيـه الحُجَّة علينا!».

فاجـتمع رأيُنا على إرضائه باليـسير، مع مُـعاقدته ألا يقـرب لنا بلداً بعد أخذ هذه الدفعة، فارتبط إلى ذلك، فلما حصلت عنده، قال: «هأنا قد صَلُحَ جـانبى! والأوكَدُ عليكم أمـرُ ألفونش، الـذى هو على الحَرَكـة عليكم وإلى غيركم، فمن أنْصَفَهُ نجـا، ومن حاد عنه، فسَلَّطَنى عليه! فإنما[2] أنا عَـبْدُه، لا بُدَّ من إتيـان مـــرغـوبه، والوقـوف عند أمـره، ولا ينفــعكم هذا الذى أعطيتمونى إن خالَفتموهُ، وليس بنافعٍ إلا فيما يخُصُّنى دون رَئيسى إن حدَّ لى ضِدَّه!» فعَلمنا أنَّ قوله حقٌ يقبله العـقل، فقُلنا: «لا يمكن أن نوَجِّهَ نَحْنُ إليه ونبدأه، فنوقِظه لأكْلنا! ولكنْ، متى أرسلَ يأذن بذلك، سنَعْـتَذِرُ إليه، فعسى [أن] يقبل رَغْبَتَنا، ولـم نفتح له بابًـا فى إعطاء شىء إلا يزيد طمعُه! أكثرُ من تَلَوِّى القول، عسى من هنا إلى ذلك الوقت [أن] يأتى عَسكَرٌ يُكسرُ به، فلا يعبأ بقَوْلِه، وإن لم يأتِ أحَدٌ لم نكُنْ نُقَدِّم إليه قبيحًا، فنشقى عند ذلك».

ودافَعَنا الأمْرُ عند البرهَانش، وأنه لا سبيل إلى أن نعطـيه شيئًا، واعتذَرنا بالمُرابِطين وغـير ذلك ممَّا لـزمنا من النفقات عليهـم، فسكتَ عنا الخِنزِيرُ،

(١) فى المطبوع: «بمن».

(٢) فى المطبوع: «إنما».

وارسل إلى صاحِبِهِ، كالذى يلزمه مـن التخدُّم له، وسأله أن يوجِّه لى رسولاً يُطْلب جِزْيَته، فإن انصرف دون شىء، كان هو المُنْتَقِمَ من جهاتها.

٥٩- التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونش السادس وعقد اتفاق جديد معه

وتأهَّبَ الْفونش إلى الحَرَكَة، وقدَّم رسولَه بين يدى حَرَكته، فلما صحَّت عندنا، أتانا منها المُقيمُ المقْعِدُ، ولم نَدْرِ أين الخيرة: إن كان فى رَفْضِ البلد وتَرْكِهِ ليَعْبَثَ فيه، أو مُداراته بما تيسَّر، ووقعت من ذلك هَيْبةٌ فى الناس ورجةٌ، حتَّى بلغ مـن الجزع أننا لم نُصَدِّق أن يقبل مِنَّا المـالَ دون المُلازَمة لنا، طالبًا لإحْنَةٍ لِيَّط ومُعاقدة المُرابِطين.

وطَمِعْنا أن يقنعَ رسولُه باليسير، فقال لى: «لم آتِ عن ذلك كلِّه، إلا أن تعطيه ما فـاتَهُ عنك من جِزْية ثلاثة أعوام بثلاثين ألفًـا! لا يُنقص منها شىءٌ، وإلا، فها هو مُـقْبِلٌ! والذى تقدر عليه، فاصْنَعْ!» فـرَوَّيتُ الأمرَ فى نفسى، ورأيتُ أن التعـاطِىَ حمـاقة لا تفيـد، وقُلتُ: «إن أخذتُ هذه من الرعـيَّة، ضجَّت وشكَتْ، ويكون مُقدَّمَتُها بمَرُّوكُش(١) شاكِينَ، يقولون: «أخَذَ أموالَنا وأعطاها للنصارى!» ولكنْ لهذا الوقت يحتاج الإنسانُ ما ادَّخَرَ ليَصُونَ به بَلَدَه وعِـرْضَه، وأنـا جَديرٌ أن أُعطـى ذلك من بيت مـالى، بَحَيْـثُ يسلم البَلَدُ، وبحَيثُ تشكر الرعيَّة بمـدافعَةِ عدوِّها دون تكليفها شـيئًا، ولا تَقَع الشُّـنْعة!» ففعلتُ ذلك، وأرسلتُ إليه الثلاثين ألفًا، لم أرْزأ أحدًا فيها درهمًا.

ورأيتُ مع ذلك أن أجَدِّدَ مـعه عقـدًا الا يعترض لـى بلدًا، ولا يغدرنى

---

(١) فى هامش المطبوع: كذا فى الأصل، عـوض «مراكش» وليس بتصحيف، إذ عـبارة «مروكش» كانت تستـعمل دون غيرها أيام المـرابطين مؤسـسى هذه المدينة، وهى التى انتـقلت إلى اللغة الإسبانية دون عبارة «مراكش» واسمها بالاسبانية إلى اليوم Marruecos.

بعدها، خوفًا أن يَقتَلِب عليَّ، فأجاب إلى العَقد، وقُلتُ في نفسي: «إذ لا بُدَّ من دَفْعِها، فبالعَقْد أَوْلَى، فإن حُوِّجْنا إليه، وجدناه، ولم يضرَّ، وإن استُغْنِيَ عنه، كان مكانَه سُمْرُ القنَى والبيض الرقاق، إن تَدارَكَنا الله بعسكرٍ يدفعه، والحَرْبُ خُدْعَةٌ! «وإذا لم تغلِبْ، فاخلِبْ!»».

فأجاب إلى تلك المُعاقَدة، حِرْصًا على أخذ المال، ونحنُ لا نشكُّ أنَّه يغدر، كالخاطِر لنفسه للضَّرُورة التى لا سبيل إلى سِوَاها، وقال لى عند ذلك رسولُه: «يقول لك ألفونش: «إن كُنْتَ تُريد تُخَلِّط مع هذه المُعاقَدة استعانةً به على شيء من بلادك التى عند ابن عَبَّاد، فهو يجدُّ لك فيها فى وجهته هذه» فأجَبْتُهُ: «إنِّى لا أُعينُ على مُسْلِمٍ أحَدًا! وإن الذى دعانى إلى هذه المعاقدة المُدافعة على بَلدى وأهل مِلتى، فإن وَفيتُم بذلك، فهو المُرادُ الذى إليه قصدنا» وكان من نيته أن يخلط الفتنة بيننا وبين ابن عباد، ليجدَ بذلك السبيلَ إلى بلاده، ويقوى عليها بأموالنا، ويتسبب إلى طَلَبِ كثيرٍ من أموالنا، إذ كانتْ تلك الثلاثون ألفًا على وَجْه الدَّين للمُسالمة فقط، وإنَّما أراد استئنافَ عَمَل.

وكان مع هذا لا يَثِقُ بِقَوْلِنا، ويحسب ذلك منَّا خُدعة، وقُلْنا له: «إنا مُغرَّرُونَ فى هذه الفعلة مَعَكَ، وستدركُنا تباعاتُها عند المُرابطين، ونُطالَب بذلك!» فقال، تسهيلاً لأخذ ماله: «متى أدرككم فى ذلك منه طَلَبٌ، فعلَىَّ الذبُّ عن مدينتكم» فأجَبناه: «بل، هو يرى عذرنا، وقبولُه وعطفُهُ أرجَى عندنا من معونتكم».

فانفَصلَت الحال على ذلك، وقال [لى رَسُولُه]: «لا بُدَّ له من تدويخ

سائر البلاد من نَظَر ابن عَبَّاد وغيره، إن لم يعْطه!» فَقْلتُ: «هذا أمرٌ لا يسألنا الله عنه يوم القيامة! كلٌّ أحَد مسئولٌ عن رعيَّته! نَحْنُ قد احتَلْنا على من قلَّدَنا الله أمْرَه، وفَدَيْنا أرواحَهم وأموالَهم! ومَن له حاجة من سائر السلاطين يُقابِل أمْركم حَسَبَ مقدرته، إن شاء بفداء أو قِتال، لا نتكلَّم نَحْنُ فى شىء من هذا، ولا ينبغى لنا، ولا أنتُم واقِعون تحت أوامرنا، فننهاكُم[1] عن ذلك، ونَحْنُ لم نتخلَّص من التحصين على ما يخصنًّا إلا بعد كَدٍّ، وما كَدَّنا، فشأنكُم! وأنا بَرىءٌ، لا أغمِسُ فى ذلك يداً ولا لسانًا».

ولم أجِد وَجْهًا نرجو به بعضَ الدفاع عن إخواننا المسلمين أكْثَر من مُخَاطَبَة المُعْتَمِد، نُعلمه بجليَّة حالنا معهم، وما ذكروه من إيطاء بلاده، ونُنْذِره بذلك، لِكَىْ يقلع، ويدَّرِع الحزم، ويُقَدِّم للأمر أُهْبَته.

٦٠- تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله:

عبدالله يبرر مسلكه

ثمَّ خاطَبْنا أميرَ المسلمين، نَقُصُّ[2] عليه جميع ما وقَعَ وما دَفَعَت الضَّرورة إليه، وأنَّ الحاضرَ أبصَر من الغائب، ولو الحال يقتضى بمَطْلِها، ولو بمقدار وصول الخطاب بمشورته سلامة للمسلمين، لم أقَدِّم شيئًا فى ذلك ولا أخَّرْتُه إلاَّ عن رأيه، كالذى يلزم، غَيْرَ أنَّ الحفر كان أشدَّ، لم أرَ التغريرَ بالمسلمين، وإنَّ الانتقامَ منهم مُدْرَكٌ بحول الله على يديه، ولم نشكَّ فى أنَّ الجواب يَرِدُنا بالشكر على ما نَظَرْناهُ وسَدَّدْناهُ، لا سيما إذ كان الفداء، من عندى ولا أُكَلِّف فيها مُسْلِمًا دِرْهمًا، فوردنى جَوابُه مع ما أُمْلِيَتْ نفسه من الطَّلب لى، وصُوِّرتْ عنده الأمور على غير حقائقها، بما زاد فى جزعى،

(١) فى المطبوع: «فنهاكم».

(٢) فى المطبوع: «ننصُّ».

يقول: «أمَّا مُدَاهَنَتُك وقَوْلُك الباطِل، فقد[1] عَلِمْناهُ! وسنعلم عن قريب كيف ترضَى الرعيَّةُ، وما تَصنَعُ إذ زَعَمْتَ أنك نظرتَ لها، ولا تُسَوِّف: فإنَّ هذا قريبٌ غَيْرُ بعيد!».

فلم أَقْنَطْ مع هذا، وقُلتُ، عند الحقائق وتِبْيَانِ ما وقع، على لسانِ رَسُول: «يزيلُ عن باله كلام الأعادى! وهذا من بَغْى القليعى وأبى بكر بن مُسكَّن! فإنهم لا ينقلون إلا على شهواتهم!» وكان أبو بكر بن مُسكَّن قد بلغ من طغيانه علىَّ، وسبِّهِ لى، ورَجائه فى أن يسهمه أمير المسلمين من البلد ما يكون قرنى أو أكثَرَ، فإنَّه انتمَى إلى بنى زيرِى، وجعل يهذى بذلك ويفتَخر به، لا يَرَى لأحَدٍ عليه فضلاً، ويسعى فى نقض ما انبرم من أحوال الدولة ما لا يتم معه مُلك ولا أمر، فجعلت الذنب فيه سَوَاءً كما فى القُلَيْعىِّ، إذ مقالتُه لا تطفى ما أشعَلَ القُلَيْعىُّ لو أراد الخيْرَ، كما أنَّ تَرْكَه لا ينقص ولا يفتر عن ذلك، فجَعَلْتُ الهمَّ فيهما هَمًّا واحدًا.

ولمَّا تشدَّدتُ عليه، وأمرتُه بالكفِّ، أحرق، وهرب دون نَفْيٍ، ومضى قاصِدًا إلى المُرابط، يغرى فىَّ، ويَسْعَى علىَّ، ويكذب، ويصوِّر الأمور على غير وجوها، فتكرَّرَتْ مُخاطَبتى على أمير المسلمين، نبيِّن له جميع ما وقع، ونشكو بما دهيت به من هؤلاء الفَسَقة، وهو، فى ذلك كلِّه، لا يراجعنى إلاَّ بالشِّدَّة، وقبول قولهم علىَّ، فبقيت تلك الأيامَ على أسوأ حال، لا ندرى أين الخيرة، ولا كيف التخلُّص.

وساءَ ظنُّ المُعتَمِد بى فى دخول النصرانىِّ إلى بلاده، وكفِّه عن بلادنا، واعتقد أنَّ ذلك عن اتِّفاق، ولو كان عن اتِّفاقٍ، لأدَّيتُ عليه مالاً فوق

(١) فى المطبوع: «قد».

الجِزْية! فليس لهم إلا بنى الكِرَى غير منطاعـين لقَوْل احَدٍ، ولم يأْتِ عسكر المُرابطين إلى إشبيلية إلاّ والبلد قد أفسد.

والله تعالى يـعلم أنِّى ما واسيت فى تـلك النَّصْبة، ولا يسـألنى الله عن كلمة طعنتُ فـيها على مُـسْلِم، فاتَّفقت الأقاويل عنـد أمير المسلمـين بكثرة الطلب، ولو أنى أريد ذلك، والانحياشَ إلى النصارى، كالذى قِيلَ، لم يَصِل المُرابِطون إلى سَـبْتة(١) إلاّ ومدينة غرناطة مَـمْلوءةٌ منهم، وكنتُ أستطيع على ذلك، وكانت لى فى المـدَّة برهة وفسـحةٌ طويلةٌ، إلاَّ أنَّ الأعمـال بالنيَّات، وتلك القالة إنَّما كـانت سَـبَبًا للذى قُدِّرَ، ولو أن قضيَّتى تُسْـتَوْضَح، لَوُجِدَ فيهـا ما لا مطعنَ فيه، ولا مَقـالُ بيِّنة، ولا إسـرار فى مَـيْل عـلى مُـسْلِم، ولا إدخال داخِلةٍ، وكـيفَ يصحُّ هذا قِبَلَنا، وأوَّلُ سَـيْفٍ سُلَّ على الروم إنَّما كان من قِبَلِنا، وهى الوقـيعة المشهورة بالنُّيـبَل، من طاعَتنا، فى حين تطرُّق النصارى إليها على حين غَـفلةٍ، ووافَقَ ذلك أوَّلَ ظهور المُرابطين ووُصولَهم سَبْتَةَ، ووَرَدَنا إذ ذاك رسول الفونش مُـعْتَذِرًا من الأمر، فصرفناه عن الطريق، قطعًا له، وإيثارًا لأمير المسلمين، وعند الله تجتمع الخصوم!.

---

(١) سـبـتـة: مدينة عظيمـة على الخليج الرومى المعروف بالزقاق، وهى تقابل الجـزيرة الخضراء، والبحر يحيط بسبتة، وليس لها إلى البر غير طريق واحدة من ناحية الغرب (الروض المعطار).